بحث محكم | قسم الدراسات الدينية | 07 سبتمبر 2016

توظيف البشارات في الجدل الإسلامي الكتابي:
الفخر الرّازي أنموذجًا

محمّد حسن بدر الدين
باحث تونسي

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2016
All rights reserved © 2016

الملخص:

أصرّ كثير من المتكلّمين وعلماء الدّين المسلمين قديمًا وحديثًا على الإقرار والتّأكيد بأنّ أسفار العهد القديم والجديد، بشّرت بنبوّة محمّد، وتحدّثت عن بعض صفاته ومعجزاته. ثمّ وظّفوا موضوع البشارات في الجدل الدّيني والثّقافي مع اليهود والنّصارى من أجل إثبات صدق النبوّة المحمّدية، وأحقيّة الإسلام وخاتميّته للأديان السّابقة، ونسخها والهيمنة عليها.

والعجيب في الأمر أنّهم أصرّوا أيضًا على أنّ تلك الأسفار ملفّقة وغير أصليّة، وقد تعرّضت إلى كثير من مظاهر التّبديل والتّغيير، وتلاعبت بها أيدي البشر وأهواؤهم على مرّ الأزمان والعصور.

فكيف تمّ الالتفاف على هذا التّناقض الجوهري جدليًا ومنهجيًا؟

تمّ ذلك باعتماد أساليب التأويل والتّبرير والوضع. وقد كان ابن ربّن الطّبري أوّل من أسّس أصولها وقنّن آدابها، وتبعه بعد ذلك من جاء بعده أمثال الجعفري وابن تيميّة وابن القيّم حتّى نصل إلى العصر الحديث على أيدي أمثال أحمد حجازي السقّا وعبد المجيد الزّنداني. وسيتعرّض البحث في جوهره إلى هذه الأساليب باعتماد منهج النّقد والتّفكيك والتّدقيق في المصطلحات والأقوال بالرّجوع إلى مصادرها الأصليّة، والتثبّت من دقّة النّقل.

تمّ تناول البحث موضوع البشارات بمقدمّة تأصيليّة تاريخيّة اهتمّت بتحديد الأزمنة والأحداث والمصطلحات وظهور أسفار العهد القديم بالخصوص. لنتبيّن علاقة نبيّ الله موسى بها، وهل يمكن فعليًا أن تبشّر بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم؟ وقدّم البحث عدّة أسباب ترجّح النّفي والاستحالة.

تمّ بعد ذلك عرض أمثلة من الجدل الإسلامي حول البشارات قبل زمن الفخر الرازيّ، ثمّ وقع التّركيز في الجانب التّطبيقي من البحث على جهود الرّازي في هذا المجال وإبراز نظريّاته في التّبشير والبشارة، اعتمادًا على تفسيره الكبير والمشهور باسم مفاتيح الغيب، ثمّ النّظر في مصادره المختلفة التي اعتمدت أسفار العهدين القديم والجديد، والتي طوّع القرآن الكريم لما ورد في رواياتها، إيماناً منه بأنّ تلك الأسفار لا بدّ أن تكون قد بشّرت بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم. وإن لم تكن بشّرت به ولا ذكرت اسمه ولا صفته، لأنّها ليست التّوراة ولا الزبور ولا الإنجيل التي تحدّث عنها القرآن الكريم في آياته.

تقديم:

أخذ موضوع البشارة بالنبيّ محمّد من خلال التّوراة والأناجيل، حيّزًا كبيرًا من اهتمامات العلماء المسلمين قديمًا وحديثًا. وقد رأينا أنّ تناول هذا الموضوع يفيد الفكر الإسلامي المعاصر في ثلاثة جوانب على الأقلّ: الجانب الأوّل يتكفّل بتوضيح فكرة البشارة في جذورها التاريخيّة والدينيّة والمعرفيّة، لأنّها ظلّت غامضة في طبيعتها وغاياتها، فضلاً عن تشتّت مباحثها في كتب السّيرة والجدل والمقالات. والجانب الثّاني يتعلّق بتوضيح الأساليب والمناهج الفكريّة التي تبنّاها الفكر الإسلامي قديمًا وحديثًا، ولفت النّظر إلى ضرورة تقويمها وتجديدها على ضوء المنطق الإسلامي نفسه، وعلى ضوء المنطق الحديث، وخاصة في النّظرة إلى الكتب الدينيّة في علاقتها بالمشاغل الرّاهنة. أمّا الجانب الثّالث فيهتمّ بربط موضوع البشارات بطبيعة الجدل الدّيني والكلامي الذي حصل بين اليهود والنّصارى والمسلمين، والبرهنة على أنّ هذا الجدل أخذ منحًى سلبيًّا في جانب اهتمامات الفكر الإسلامي، وأدّى إلى تكريس مفردات النّقل والتّبرير وتأسيس منطق التبعيّة والاسترضاء. وعلى الرغم من ذلك يمكن استثمار ذلك الجدل في تحقيق غايات تثويريّة لمباحثه، يجب أن تتعلّق كما لاحظ عبد المجيد الشّرفي، بالعناية بالآخر وحبّ الخير له والسّعي إلى معرفة عقائده معرفة دقيقة ومفصّلة، والدّفاع عمّا يعتقد أنّه الحقّ دون التّفكير في إكراهه على قبوله. ونظرًا لاتّساع الموضوع في مشاربه واتّجاهاته، اخترنا تناول المسألة من خلال أنموذج **فخر الدّين الرّازي** (544-606هـ/-1150 1210م) باعتباره من أهمّ الأسماء المعبّرة عن المرجعيّة الإسلاميّة، وهو الذي تناول موضوع البشارة بشيء من التوسّع.

مداخل لغوية وتاريخيّة:

رسخت في القرون الإسلاميّة الأولى فكرة أنّ أهل الكتاب وخاصّة أحبار اليهود هم مصدر أساسي في العلم والتّاريخ وأنّ علمهم هو الحقّ. ومن ذلك الحقّ الّذي تحدّثت عنه مراجعنا هو أنّ اليهود والنّصارى كانوا على علم بظهور الرّسول ويعرفون صفاته الخلقيّة والأخلاقيّة. فهل كان اليهود على علم فعلاً ببعث محمّد بن عبد الله، فانتظروه؟ وأيّ توراة بشّرت به؟ وأيّ إنجيل من الأناجيل تعرّض لذلك الموضوع؟

إنّ الّذين تناولوا هذا الموضوع قديمًا وحديثًا تاهوا في خضمّ المصطلحات والتّرجمات، واختلفت دوافعهم بين تأكيد لنبوّة محمّد وتثبيت لدلائلها، وفخر بالتّبشير به وجدل مع أهل الكتاب.

ونجد في المراجع التي تناولت الموضوع جزئيًا أو كليًا استعمال كلمات: تبشير وبشارة وبشارات. فحسبما ورد في **تاج العروس** فإنّ «البِشَارة: اسمُ ما يُعْطَاه المُبَشِّرُ بالأمْر، ويُضَمُّ فيهما. والبِشَارَةُ المُطْلَقَةُ لا

تكونُ إلاّ بالخَيْر، وإنّمَا تكونُ بالشَّرِّ إذا كانت مُقيَّدَةً كقوله تعالَى: «فَبَشِّرْهُمْ بعَذابٍ أليم». ويكون البَشِيرُ في الخَيْرِ أكثرَ منه في الشَّرِّ. والبِشَارةُ بالكسر والضمّ لغة، وإذا أُطلِقَتْ اختصَّتْ بالخَيْرِ».[1]

فهل هي بشارة واحدة أم بشارات؟ وما مكان ورودها، هل في توراة موسى الأصليّة المفقودة؟ أم في توراة اليهود في نسخها العديدة من سامريّة وسبعينيّة وعبرانيّة، أم في إنجيل عيسى المفقود أم في الأناجيل السّائدة عند النّصارى؟ التي خضعت لترتيبات المجامع الدينيّة على مرّ العصور؟ ذلك أنّ العلاقة بينها من حيث المصدر والمضمون معقّدة ومختلفة. **فالزّبيدي** مثلاً وهو يعرض لمصطلح الإنجيل لغةً ومضمونًا اكتفى بالقول: «نَجَلَ الشيءَ يَنْجُلُه نَجْلاً: أَظْهَره. قيل: ومنه اشتِقاقُ الإنجيل. قال الزّجّاج: هو اسمٌ أعجميٌّ. وهو اسمُ كِتابِ اللهِ المُنَزَّلِ على عيسى».[2]

لا يعنينا الاشتقاق وإنّما دقّة التّعريف. وما كان الزّبيدي، ولا غيره من علماء اللّغة وفقهها أن يزيدوا شيئًا على ذلك. وكلّ المسلمين يعلمون أنّ الله عزّ وجلّ أنزل الإنجيل على عيسى. فلا يمكن الحديث عن أناجيل عديدة من جهة، ولا يمكن اعتبار أيّ سفر من أسفار العهد الجديد إنجيلاً بالمفهوم القرآنيّ من جهة أخرى. قد تكون تلك الأناجيل حجّةً أو دليلاً على أحداث ووقائع تاريخيّة، ولكنّها ليست مصدرًا لموضوع هامّ كالتّبشير بنبيّ. وقد أورد الزّبيدي قولة عن الأَصْمَعِيّ مفادها أنّ الإنْجيل هو كلُّ كتابٍ مكتوبٍ وافرِ السُّطور.[3]

أمّا التّوراة فمن الغريب أن لا نجد في القواميس العربيّة شرحًا لها يزيد على كونها اسم كِتابِ اللهِ المُنَزَّلِ على موسى. ربّما يرجع ذلك إلى شهرتها وكثرة الرّوايات المنسوبة إليها في تراثنا. أمّا في القرآن فقد وردت لفظة التّوراة (16 مرّة) والإنجيل (12 مرّة). ولذلك، فإنّ البحث عن البشارة بالنبيّ، لمن يرى في ذلك فائدة تذكر، ينبغي أن ينطلق من تفسير القرآن أوّلاً وينتهي إلى السيرة النبويّة ثانيًا. لأنّه قد لا يجد شيئًا في التّوراة والأناجيل. وانطلاقًا من تحديد المصطلحات وممّا يوجد في تفسير القرآن والسّيرة، نحاول الإجابة عن الأسئلة الأساسيّة التي عرضناها ونناقش الإقرارات المطروحة حول الموضوع. ونبدأ بتأصيل الموضوع من وجهة نظر إسلاميّة أوّلاً ثمّ تاريخيّة.

موجز لتاريخ الكتب الإلهيّة والتّبشير بالأنبياء:

ذكر القرآن عددًا من الأنبياء والرّسل، وأعلمنا أنّ الله تعالى بعث غير أولئك، ولم يذكر لنا أسماءهم. والنبيّ ليس له كتاب منزّل بالضّرورة، فيكون في تلك الحالة متمّمًا لدور الرّسول كما كان هارون لموسى، أو مواصلاً لرسالته، كما كان سليمان لأبيه داود، أو مذكّرًا بما جاء به رسول قبله، كما كان أنبياء بني إسرائيل

1 - مرتضى الزّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: إبراهيم الترزي، مطبعة حكومة الكويت، 1392ه/1973م، 185/10

2 - المرجع السّابق، 30 /458

3 - المرجع نفسه، 458/30

بين الرّسل، أو مبشّرًا برسول قريب الظّهور كما كان يحيى لعيسى. وكثيرًا ما يُبعث رسول ونبيّ معًا، في الزّمن نفسه، كما وقع مع إبراهيم وابنه إسحاق، وإسحاق وابنه يعقوب، وإبراهيم ولوط. ومن الكتب الإلهيّة ذكر القرآن خمسة كتب هي:

1- صحف إبراهيم: يفترض أنّ إبراهيم ظهر حوالي 1800 ق.م.

2- صحف موسى أو التّوراة: الأرجح أنّ موسى تلقّاها حوالي 1350 ق.م.

3- الزبور لداود: أرّخت وفاة داود بعام 970 ق.م. فيكون تلقّى الزبور حوالي 1000 ق.م.

4- الإنجيل لعيسى: بعد 1000 سنة من داود.

5- القرآن لمحمّد: بعد 650 سنة من عيسى.[4]

من خلال تلك التّواريخ التّقديريّة، يمكن وضع تبشير الأنبياء والرّسل بعضهم ببعض في نسقه التّاريخيّ والمنطقيّ. والسّؤال الأوّل في هذا السّياق هو: هل بشّرت صحف إبراهيم أو إبراهيم نفسه بموسى؟ يصعب الجواب لا محالة، نظرًا للفارق الزمنيّ بين الرّسولين (500 سنة تقريبًا). فالأمر ممكن خاصّة وأنّ النبوّة تواصلت بعد إبراهيم في ابنه إسحاق وحفيده يعقوب، وتواصلت الرّسالة في ابنه إسماعيل، وإسماعيل أولى أن يبشّر العرب بنبيّ يأتي بعده اسمه أحمد، وهذا لم يحدث. ولا يبعد موسى عن يعقوب أكثر من 250 سنة تقريبًا. فإن لم يرد في صحف إبراهيم تبشير بموسى فقد يكون إبراهيم بشّر بموسى شفويًا، وتواصل ذلك شفويًّا مع إسحاق ويعقوب حصرًا للنبوّة في بني إسرائيل، وبذلك عرف بنو إسرائيل أنّه لن يأتيهم من الله نبيّ إلاّ منهم لزمن محدّد. بذلك يكون تبشير إبراهيم خاصًّا ومحصورًا في إسحاق وابنه يعقوب. ولم يخبر إبراهيم بموسى بقيّة الأقوام التي نشر فيها رسالته الإلهيّة مثل العراقيّين والكنعانيّين. وهكذا ينحصر التبشير بموسى ليصل إلى بني إسرائيل الّذين ظهروا في مصر ولا يعرفون فلسطين ولا العراق. هو افتراض لا محالة، ونحن نعلم أنّ شعيبًا بعث في مدينة مدين إلى قومه المديانيين. والمديانيّون عرب ولغتهم أقرب اللّغات إلى العربيّة. وإذا كان شعيب هو صهر موسى، كما هو في مراجعنا، فقد كان حيًّا بين 1380 ق.م. و1360 ق.م. وقصّة زواج موسى نجدها في الإصحاح الثّاني من سفر الخروج: «وَكَانَ لِكَاهِنِ مِدْيَانَ سَبْعُ بَنَاتٍ، فَأَتَيْنَ وَاسْتَقَيْنَ وَمَلأْنَ الأَجْرَانَ لِيَسْقِينَ غَنَمَ أَبِيهِنَّ. فَأَتَى الرُّعَاةُ وَطَرَدُوهُنَّ». وكَاهِن مِدْيَان (Le sacrificateur de Madian) اسمه (يَثْرُون- Jéthro) في ذلك السّفر، وإن كان شعيب هو يَثْرُون، فهو لم يبشّر بأحمد، فإن لم يبشّر بالرّسول لا إسماعيل ولا شعيب فلا يكون ذلك إلاّ لفارق الزّمن بينهما. وإن لم يبشّر به نبيّان لغتهما أقرب إلى العربيّة، فكيف يبشّر به من لا يعرف العربيّة؟ فهل بشّرت التوراة، أو موسى نفسه، بداود؟

4 - L. Pirot, Supplément au dictionnaire de la Bible, vol.5, Paris, 1957; Henri Cazelles ,à la recherche de Moïse, Cerf, Paris, 1979; Encyclopædia Universalis 2010, articles: Abraham, Moise, Bible.

يصعب الافتراض والجواب، إذ الفارق الزمنيّ بينهما 350 سنة تقريبًا. والرّسالة الإلهيّة القادمة محصورة في قوم بني إسرائيل، والفضاء الجغرافيّ هو مملكتا إسرائيل في فلسطين. ومعلوم أنّ الله بعث أنبياء إلى بني إسرائيل فيكون التّبشير قد تواصلَ شفويًا. فهل بشّر الزبور أو داود نفسه، بعيسى؟ نرجّح النّفي لسببين هما: الفارق الزّمني بين داود وعيسى: ألف سنة! ولكون عيسى ليس من بني إسرائيل. ولا نرجّح أنّ سليمان أيضًا بشّر بعيسى. لقد تغيّرت الظّروف واندثرت مملكتا إسرائيل ونُقل أغلب بني إسرائيل إلى العراق وفارس. وهاجر الكثيرون إلى مصر والجزيرة العربيّة وأوروبّا. تشتّت بنو إسرائيل شذر مذر، ولم يبق منهم إلاّ تجمّعات في العراق وخاصّة في بابل وأقليّة في فلسطين واختلطت الأنساب وتغيّرت الأسماء. وفي الأثناء ظهرت الديانة اليهوديّة على يد عزرا (عزير).[5]

ظهور الدّيانة اليهوديّة:

بدأ التّنظير للمعتقد اليهوديّ في بابل على أيدي جماعة من الكهّان والأرسطقراطيّين من سكّان يهوذا من بني إسرائيل المنفيّين إلى بابل. كان ذلك هو الحزب اليهوديّ نسبة إلى مقاطعة يهودا في فلسطين وهي جنوب «إسرائيل» اليوم مع قطاع غزّة. تزعّم التّنظير للمعتقد الجديد الكاهن والكاتب عزرا أو عزير (Ezra أو Esdras). وتمّ ذلك وفق **المراحل الآتية:**

أمر قورش الكبير (Cyrus le Grand) الملك الفارسيّ (529-550 ق.م) ببناء هيكل في القدس، في مكان المسجد الأقصى الّذي شيّده سليمان، لسكّان مقاطعة يهودا المنفيّين في بابل. كلّف الملك مهندسيه وبنّائيه بالعمل، وجعل الخزينة الفارسيّة تهتمّ بكلّ التكاليف والمصاريف. وقد نصّ على ذلك سفرا عزرا ونحميا. وسبب تلك «الالتفاتة» من قورش هو طرد بني إسرائيل من عاصمته بابل. ولكنّ كمبيز الثاني ابن قورش ووريثه في الملك (522-529 ق.م) أوقف الأشغال.

أمّا داريوس الأوّل «Darius Ier» (486-522 ق.م) فأمر بمواصلة الأشغال في الهيكل، وقد انتهت في السّنة السّادسة من عهده (515 ق.م) وبذلك يكون بناء ذلك الهيكل الفارسيّ لسكّان يهودا قد امتدّ أكثر من ثلاثين سنة (515-549 ق.م) ثمّ سلّم الهيكل إلى عزرا وزروبابل، ووقع تدشينه في (515 ق.م).[6]

وقد تضمّن السّفران المذكوران صورة ذلك التّدشين، حيث خرج **عزرا** على الّذين عادوا من بني إسرائيل في القدس في يوم احتفاليّ لتدشين الهيكل الفارسيّ وتغيير جنسيّته إلى يهوديّ، نسبة جغرافيّة، لا دينيّة. نصبت منصّة اعتلاها الكاهن الرأس، وأخرج من جيبه صحيفة ونشرها وشرع يقرأ طيلة ساعات،

5 - إسرائيل فنكلشتاين، التّوراة اليهوديّة مكشوفة على حقيقتها، ترجمة: سعد رستم، دار صفحات للدّراسات والنّشر، الإصدار الرابع، دمشق، 2011م، ص 357

6 - موسوعة يونفرساليس الفرنسيّة، إصدار 2010. سبق ذكره. وانظر المرجع السّابق، ص 356

مؤكّدًا أنّ ما يقرأه عليهم هي التّوراة وهي شريعة موسى. لا نظنّ أنّ كلّ الحاضرين صدّقوا ما قال عزرا. ولكن كان ذلك هو الإعلان الرسميّ لديانة جديدة، لم يأت بها موسى، وإنّما وضعها عزرا. وسميّت الديانة الجديدة: «اليهوديّة» نسبة إلى أحد الأسباط وهو يهودا ابن يعقوب، ثمّ نسبة إلى «مملكة يهوذا»، لأنّ أغلب سكّانها هم من قبيلة يهوذا، ثمّ نسبة إلى تلك القطعة الجغرافيّة التي سمّاها الفرس «يهودا» كإحدى مقاطعات إمبراطوريّتهم الجديدة عملاً بما تعارف عليه النّاس آنذاك. فقبل 515 ق.م. لم تكن توجد ديانة تسمّى اليهوديّة لا في يهودا نفسها ولا في مملكة إسرائيل ولا عرفها بنو إسرائيل كلّهم.[7]

ورد في سفر نحميا (Nehemiah): «اجْتَمَعَ كُلُّ الشَّعْبِ كَرَجُل وَاحِدٍ إِلَى السَّاحَةِ الَّتِي أَمَامَ بَابِ الْمَاءِ، وَقَالُوا لِعَزْرَا الْكَاتِبِ أَنْ يَأْتِيَ بِسِفْرِ شَرِيعَةِ مُوسَى الَّتِي أَمَرَ بِهَا الرَّبُّ إِسْرَائِيلَ. فَأَتَى عَزْرَا الْكَاتِبُ بِالشَّرِيعَةِ أَمَامَ الْجَمَاعَةِ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَكُلِّ فَاهِمٍ مَا يُسْمَعُ، فِي الْيَوْمِ الأَوَّلِ مِنَ الشَّهْرِ السَّابعِ. وَقَرَأَ فِيهَا أَمَامَ السَّاحَةِ الَّتِي أَمَامَ بَابِ الْمَاءِ، مِنَ الصَّبَاحِ إِلَى نِصْفِ النَّهَارِ، أَمَامَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْفَاهِمِينَ. وَوَقَفَ عَزْرَا الْكَاتِبُ عَلَى مِنْبَرِ الْخَشَبِ الَّذِي عَمِلُوهُ لِهذَا الأَمْرِ. وَفَتَحَ عَزْرَا السِّفْرَ أَمَامَ كُلِّ الشَّعْبِ».[8]

وجاء في سفر عزرا: «فَلَمَّا صَلَّى عَزْرَا وَاعْتَرَفَ وَهُوَ بَاكٍ وَسَاقِطٌ أَمَامَ بَيْتِ اللهِ، اجْتَمَعَ إِلَيْهِ مِنْ إِسْرَائِيلَ جَمَاعَةٌ كَثِيرَةٌ جِدًّا مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالأَوْلاَدِ، لأَنَّ الشَّعْبَ بَكَى بُكَاءً عَظِيمًا. فَقَامَ عَزْرَا وَاسْتَحْلَفَ رُؤَسَاءَ الْكَهَنَةِ وَاللاَّوِيِّينَ وَكُلَّ إِسْرَائِيلَ أَنْ يَعْمَلُوا حَسَبَ هذَا الأَمْرِ، فَحَلَفُوا».[9]

تلك هي نشأة المعتقد اليهوديّ وبداية ظهوره وأولئك هم واضعوه وعلى رأسهم عزرا (Esdras). وكان عليه أن يقرأ عليهم الزبور لا التّوراة. فقد ظهر عزرا بعد 550 سنة تقريبًا من داود، وقرابة تسعة قرون بعد موسى. وبنو إسرائيل أنفسهم يعرفون أنّه لم يبق أيّ أثر كتابيّ للكتابين الإلهيّين، وأنّه لم يبق منهما إلاّ روايات تغيّرت بمرور تلك القرون. فمن أين جاء ذلك الكاهن بتوراة موسى؟ إنّ ما قرأه عزرا لم يتحوّل حقيقة إلى توراة إلاّ بعد موته بقرون عديدة. لأنّ كهّان بني إسرائيل رسّخوا ذلك الاسم ليشرّعوا به ما شاؤوا من قوانين وأحكام.

تاريخيّة أسفار العهد القديم:

قال عبد الوهاب المسيري: «إنّ تدوين العهد القديم بدأ في فترة زمنيّة تَبعُد عن موسى مئات السّنين، وكذلك عن كثير من الأحداث الّتي تمّ التّأريخ لها. كما أنّ عمليّة التّدوين لم تتمّ دفعة واحدة وإنّما تمّت خلال مدّة زمنيّة طويلة. وتمّ اختيار بعض النّصوص المقدَّسة من بين نصوص مقدَّسة أخرى. ويرى كثير من

7 - فنكلشتاين، التّوراة اليهوديّة، ص354. سبق ذكره.

8 - نحميا، الإصحاح الثّامِن.

9 - عزرا، الإصحاح العَاشِر.

الباحثين أنّ أوّل جزء من العهد القديم تمّ تدوينه هو أسفار موسى الخمسة، ويُقال إنّ هذه العمليّة تمّت في بابل أثناء فترة التّهجير (587 ق.م) أو ربّما قبل ذلك بوقت قصير. ذلك أنّه لم يأت ذكر لقراءة التوّراة في الاحتفالات الخاصّة بافتتاح الهيكل. وأوّل إشارة إلى قراءة التّوراة هي قراءة عزرا عام 444 ق.م. وقد جُمعت أسفار الأنبياء ونُظِّمت خلال الفترة الممتدّة من القرن السّادس، حتّى القرن الثالث قبل الميلاد. ويبدو أنّها أُلِّفت في فترة كانت فيها أسفار موسى مجهولة منسيّة إذ يَندُر أن تجد فيها ذكراً لاسمه. ويبدو أنّ بعض الأنبياء أيضاً، (عاموس مثلاً)، لم يكن لهم به علم».[10]

نلاحظ أنّ عبد الوهاب **المسيري**، تابع الموسوعات الغربيّة في التأريخ لظهور عزرا على ساحة الأحداث. لذلك ذكر عام 444 ق.م. «كأوّل إشارة إلى قراءة التّوراة هي قراءة عزرا». والواقع أنّه لم تكن توجد توراة ليقرأها بنو إسرائيل قبل عزرا. وكان تدشين الهيكل وأوّل ظهور لتلك التوراة اليهوديّة التي وضعها عزرا وأوّل قراءة لها عام 515 ق.م. بعد ذلك شرع الكهّان-الكتبة في وضع تلك الأسفار المعروفة بالعهد القديم في ذلك الكتاب «المقدّس». وكتب بني إسرائيل الأولى هي خمسة يسميّها اليهود أتباع عزرا الخماسيّة (pentateuque) أو التّوراة أو أسفار موسى الخمسة وهي: التكوين والخروج واللاويّون والعدد والتثنية. ولا علاقة لها البتّة بموسى لا تاريخًا ولا كتابةً ولا مضموناً. فإنّها لم تظهر إلاّ بعده وبعد داود بقرون عديدة. فلا أحد يعرف بالضّبط متى كُتب سفر التّكوين، أمّا سفر الخروج، فمن المرجّح أنّه كتب حوالي 550 ق.م. أمّا سِفر اللاويّين فغير معروف أيضًا، أمّا سِفر العدد ففي القرن السادس ق.م، وسفر التثنية في القرن الثّامن ق.م. وإذا عرفنا أنّ موسى خرج ببني إسرائيل من مصر حوالي 1350ق.م. وأنّ داود ظهر بين ألف وألف ومائة ق.م، أدركنا المسافات الزمنيّة الّتي تفصل بين الرّسولين وبين ظهور المعتقد اليهودي على يد عزرا، من جهة، وبينهما وبين ظهور أسفار العهد القديم من جهة أخرى. مع العلم أنّ بقيّة الأسفار تمدّدت كتابتها بين 500 و200 ق.م. وفي أحدث التّقديرات، فإنّ المختصّين من الغربيّين يعتقدون أنّ أسفار عزرا ونحميا وأخبار الأيّام هي من تأليف شخص واحد، وأنّها تعود إلى حوالي 300 سنة ق.م. أي بعد عزرا نفسه بثلاثة قرون![11]

وهنا تطرح عدّة أسئلة: هل يعقل أن تبشّر تلك الأسفار بأيّ نبيّ سوف يظهر بين موسى وعزرا، أي أنّها تبشّر بظهور أنبياء بعد ظهورهم!؟ وهل يعقل أن يبشّر كهّان بني إسرائيل وأحبارهم بنبيّ من غير بني إسرائيل؟ وهل يعقل أن يكتبوا اسم «أحمد» وهم له جاهلون؟ كان من المنطقيّ والمعقول تاريخيًّا أن تبشّر تلك الأسفار بداود ولو بعد ظهوره، أو على الأقلّ أن تبشّر بعيسى بن مريم. ويتفرّع عن ذلك الطّرح سؤال منهجي: هل بشّر العهد القديم بعيسى؟ الجواب بالنّفي، لسببين على الأقلّ: الأوّل: أنّ المعتقد اليهوديّ لا يعترف بالوحي الإلهيّ. ولا يعترف العهد القديم إلاّ بموسى نبيًّا، وذلك لكي يعطي الكهّان والأحبار شرعيّة

---

10 - عبد الوهّاب المسيري، موسوعة اليهود واليهوديّة، دار الشّروق، القاهرة، 2006م، 197/13. وانظر: فنكلشتاين، التّوراة اليهوديّة، ص 359، سبق ذكره.

11 - مصطفى زرهار، مقاربات في دراسة النصّ التّوراتي، دار صفحات للدّراسات والنّشر، الإصدار الأوّل، دمشق، 2012م، ص 36

دينيّة وقداسة سماويّة لما وضعوا من تواريخ وأحكام فقهيّة وأخلاقيّة. فلا يمكن لأولئك المتنبّئين أن يبشّروا بنبيّ. لأنّ ذلك يغلق باب الوضع واستغلال اليهود ماديًّا وعقائديًّا وفكريًّا.

ثانيًا: بشّر العهد القديم بمسيح- ملك، من نسل داود، يعيد إسرائيل ويضع البشريّة تحت قدميه. وتلك هي ركيزة الصّهيونيّة ودينها ومحياها ومماتها. إذن، لم يقع التّبشير بعيسى بين بني إسرائيل كتابيًّا، ولكنّه يمكن أن يكون قد وقع شفويًّا عن طريق الأنبياء الّذين أرسلوا إلى بني إسرائيل، وآخرهم يحيى المعمدان. وليس المجال هنا بيان موقف بني إسرائيل واليهود من عيسى، ولكن نعرض لمسألة **البشارة بأحمد.** فهل بشّرت التّوراة، أو الزّبور أو بشّر أيّ نبيّ بين موسى وعيسى بأحمد؟ الجواب: كلاّ. والأسباب هي:

- طول الزّمن: حوالي ألفي سنة بين موسى ومحمّد. حيث يصعب أن يبقى التبشير الشفويّ مع ذلك العهد الطويل فلا بدّ أن ينسى أو يحرّف.

- بما أنّ النبوّة حصرت في بني إسرائيل وتواصلت فيهم إلى يحيى، فلا موجب ولا معنى أن يقع التبشير بنبيّ من غيرهم إلى وقت يحيى.

- ما فائدة أن يبشّر موسى أو داود بمحمّد، بينما سوف يبعث قبله داود وعيسى رسولين؟ وهل من المنطق أن يقول موسى لقومه إنّه سيظهر نبيّ اسمه أحمد بعد ألفي عام؟ وينطبق الأمر نفسه على داود وسليمان ومن جاء بعدهما من الأنبياء.

والغاية هنا ليس التدليل على البشارة بمحمّد في العهد القديم، أو التوراة، أو في أناجيل العهد الجديد، كما شاع في الفكر الإسلامي قديمًا وحديثًا، وإنّما توضيح تلك الفكرة في جذورها التاريخية والدينيّة والمنطقية، وتوضيح الأساليب المتّبعة قديمًا وحديثًا ودحض خيالات المسلمين في تلك البشارات وربطها بطبيعة الجدل الدّيني والكلامي الذي ساد بين اليهود والنّصارى والمسلمين عبر العصور. ولنبرهن أنّ هذا الجدل أخذ حيّزًا كبيرًا من اهتمامات الفكر الإسلامي وأدّى الأمر إلى وضع نصوص ونسبتها إلى التّوراة، تقليدًا لكهّان بني إسرائيل وأحبار اليهود والنّصارى. ونذكر بعض الأمثلة العامّة من الفكر الإسلامي للتّدليل على هذا الخلل في الطرح والجدل، قبل أن نخصّص البحث في أنموذج الفخر الرّازي.

ورد في كتاب «تخجيل من حرّف التّوراة والإنجيل» لتقيّ الدّين الجعفري (581هـ-688-هـ): أنّ أشعيا النبيّ، نصّ على خاتم النبوّة قائلاً: «ولد لنا غلام يكون عجباً وبشيراً. والشامة على كتفه، أركون السّلام، إله جبّار، سلطانه سلطان السلامة، وهو ابن عالمه. يجلس على كرسيّ داود.[12] قال المؤلّف: (الأركون) هو العظيم بلغة الإنجيل، والأراكنة، المعُظّمون: (لمّا أبرأ المسيح مجنوناً من جنونه قالت اليهود: إنّ هذا لا

12 - أشعيا، 6/9

يخرج الشياطين من الآدميين إلاّ بأركون الشياطين».[13] يعنون: عظيمهم. وقال المسيح أيضاً في الإنجيل: «إنّ أركون هذا يدان».[14] يريد إمّا إبليس أو الشرّير العظيم الشرّ من الآدميين. وسمّاه إلهاً على نحو قول التّوراة: «إنّ الله جعل موسى إلهاً لفرعون».[15] أي: حاكماً عليه ومتصرّفاً فيه. وعلى نحو قول داود للعظماء من قومه: «إنّكم آلهة».[16] فقد شهد أشعيا بصحّة أمر محمّد رسول الله ووصفه بأخصّ علاماته وأوضحها وهي: شامته. فلعمري لم تكن الشامة لسليمان ولا للمسيح».[17]

أمّا ابن قيّم الجوزيّة (691-751هـ) فقد اعتبر أنّ البشارة بمحمدّ لم تنقطع من آدم مرورًا بموسى إلى عيسى: «مُحَمَّد بَشَّرَتْ بِهِ الْكُتُبُ السَّالِفَةُ، وَأَخْبَرَتْ بِهِ الرُّسُلُ الْمَاضِيَةُ، وَجَرَى ذِكْرُهُ فِي الْأَعْصَارِ فِي الْقُرَى وَالْأَمْصَارِ وَالْأُمَمِ الْخَالِيَةِ، ضُرِبَتْ لِنُبُوَّتِهِ الْبَشَائِرُ مِنْ عَهْدِ آدَمَ أَبِي الْبَشَرِ، إِلَى عَهْدِ الْمَسِيحِ ابْنِ الْبَشَرِ، كُلَّمَا قَامَ رَسُولٌ أُخِذَ عَلَيْهِ الْمِيثَاقُ بِالْإِيمَانِ بِهِ وَالْبِشَارَةِ بِنُبُوَّتِهِ حَتَّى انْتَهَتِ النُّبُوَّةُ إِلَى كَلِيمِ الرَّحْمَنِ مُوسَى بْنِ عِمْرَانَ، فَأَذَّنَ بِنُبُوَّتِهِ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ مُعْلِنًا بِالْأَذَانِ «جَاءَ اللَّهُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ، وَأَشْرَقَ مِنْ سَاعِيرَ، وَاسْتَعْلَنَ مِنْ جِبَالِ فَارَانَ». إِلَى أَنْ ظَهَرَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ وَرُوحُهُ وَكَلِمَتُهُ الَّتِي أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ، فَأَذَّنَ بِنُبُوَّتِهِ أَذَانًا لَمْ يُؤَذِّنْهُ أَحَدٌ مِثْلُهُ قَبْلَهُ، فَقَامَ فِي بَنِي إِسْرَائِيلَ مَقَامَ الصَّادِقِ النَّاصِحِ وَكَانُوا لَا يُحِبُّونَ النَّاصِحِينَ، فَقَالَ: إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ تَاللَّهِ لَقَدْ أَذَّنَ الْمَسِيحُ أَذَانًا أَسْمَعَ الْبَادِيَ وَالْحَاضِرَ [...] ثُمَّ رَفَعَ صَوْتَهُ بِالشَّهَادَةِ لِأَخِيهِ وَأَوْلَى النَّاسِ بِهِ بِأَنَّهُ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّهُ أَرْكُونُ الْعَالَمِ، وَأَنَّهُ رُوحُ الْحَقِّ الَّذِي لَا يَتَكَلَّمُ مِنْ قِبَلِ نَفْسِهِ».[18]

ظهر التّنقيب عن البشارة بالرّسول عند المسلمين في نطاق الصّراع بين المعتقدات، وذلك في النّصف الثّاني من القرن الأوّل الهجريّ. بدأ الأمر جدلاً في الكلاميّات، ولم يقتصر الأمر على البحث والحجاج، بل أخذ صبغة عقائديّة تتجاوز القرآن نفسه، حيث انقلب الأمر تفضيلاً لأنبياء الله ورسله بعضهم على بعض وقد نهى الإسلام المسلمين عن ذلك.

نعتبر النصّ السّابق لابن قيّم من أبلغ (وأشمل) ما قيل في الموضوع. وهو ذو دلالات هامّة من حيث الأسلوب والمضمون. فالأسلوب إقرارات عاطفيّة حماسيّة جعلت التّبشير بمحمّد متواصلاً تاريخيًّا من

13 - متى، 9/32-34

14 - يوحنّا، 16/11

15 - خروج، 4/16

16 - مزمور، 82/6

17 - صالح بن الحسين الجعفري (581-688هـ) تخجيل من حرّف التّوراة والإنجيل، تحقيق: محمود عبد الرحمن قدح. مكتبة العبيكان، م. ع. س. الطبعة الأولى، الرّياض، 1419هـ/1998م، 2/675

18 - ابن قيم الجوزيّة (691-751هـ) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنّصارى، تحقيق: محمّد أحمد الحاج، دار القلم، الدّار الشامية، السّعودية، الطبعة الأولى، جدّة، 1416هـ/1996م، 1/223

موسى إلى عيسى على لسان كلّ الأنبياء والرّسل. والمضمون أقوال نسبها ابن القيّم إلى موسى وعيسى، مشحونة بتعابير ومصطلحات ذات أبعاد مفاهيمية عقائديّة وثقافيّة مربكة. فلنوضّح بعض تلك المصطلحات: «أذّن»: اختار هذا الفعل لدلالاته الدينيّة والدعويّة، فالأذان كما هو معروف هو النّداءُ إلى الصّلاةِ. أركون (Archonte): «أُرْكُون القرية رئيسها ودِهْقانها الأعظم».[19]

المصطلح يونانيّ، وقد كان يعني حاكمًا في ولايات أثينا القديمة. نقله أحبار اليهود في أسفارهم وصار يعني عندهم العظيم أي صاحب سلطان وقدرات. وقد يعنون به الحاكم الرّومانيّ في فلسطين، أو السّلطان الظّالم، أو الشيطان. ولا يوجد المصطلح في «الكتاب المقدّس» في نسخه العربيّة والفرنسيّة المنشورة اليوم. «روح الحقّ»: تعبير مسيحيّ يعني عيسى لا غير. «الإمام»: وظيفة معروفة عند المسلمين.

فالنصّ عاطفيّ مشوب بالانفعال، لفّق فيه ابن القيّم بين مصطلحات ومفاهيم يهوديّة ومسيحيّة وإسلاميّة، وربط بينها عشوائيًا. وليس فيه إلاّ حقيقة واحدة: «ظهر المسيح. فقام في بني إسرائيل. فقال: «إِنّي رَسولُ اللهِ إليكم مُصدِّقاً لِما بَينَ يَدي مِنَ التَوراةِ وَمُبَشِراً بِرَسولِ يَأتي مِن بَعدي اسمُهُ أَحمَد». تلك هي الحقيقة الوحيدة اليتيمة في كلام ابن القيّم. نلاحظ أنّه قفز على التاريخ قفزات «أولمبيّة»، فلم يذكر لا داود ولا سليمان ولا يحيى، حيث ذكّر بما جاء في التّوراة، فقال: «وَقَدْ تَقَدَّمَ نَصُّ التَّوْرَاةِ: تَجَلَّى اللَّهُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ، وَأَشْرَقَ مِنْ سَاعِيرَ، وَاسْتَعْلَنَ مِنْ جِبَالِ فَارَانَ. قَالَ عُلَمَاءُ الْإِسْلَامِ، وَهَذَا لَفْظُ أَبِي مُحَمَّدِ بْنِ قُتَيْبَةَ، لَيْسَ بِهَذَا خَفَاءٌ عَلَى مَنْ تَدَبَّرَهُ وَلَا غُمُوضٌ، لِأَنَّ الْمَجِيءَ أَيْ مَجِيءُ اللَّهِ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ: إِنْزَالُهُ التَّوْرَاةَ عَلَى مُوسَى مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ كَالَّذِي هُوَ عِنْدَ أَهْلِ الْكِتَابِ وَعِنْدَنَا، وَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ إِشْرَاقُهُ مِنْ سَاعِيرَ: إِنْزَالَهُ الْإِنْجِيلَ عَلَى الْمَسِيحِ، وَكَانَ الْمَسِيحُ مِنْ سَاعِيرَ، أَرْضِ الْخَلِيلِ، بِقَرْيَةٍ تُدْعَى نَاصِرَةَ، وَبِاسْمِهَا تَسَمَّى مَنِ اتَّبَعَهُ نَصَارَى، وَكَمَا وَجَبَ أَنْ يَكُونَ إِشْرَاقُهُ مِنْ سَاعِيرَ بِالْمَسِيحِ، فَكَذَلِكَ يَجِبُ أَنْ يَكُونَ اسْتِعْلَانُهُ مِنْ جِبَالِ فَارَانَ: إِنْزَالَهُ الْقُرْآنَ عَلَى مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَجِبَالُ فَارَانَ هِيَ جِبَالُ مَكَّةَ، قَالَ: وَلَيْسَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ وَأَهْلِ الْكِتَابِ خِلَافٌ فِي أَنَّ فَارَانَ هِيَ مَكَّةُ».[20]

أخطأ ابن القيّم إذ أطلق وعمّم، بل لم يقل علماء الإسلام ما أورده على لسان ابن قتيبة، وإنّما قاله بعض أهل الحديث وبعض المتكلّمين. وأبو محمّد بن قتيبة (213-276هـ) ذكره **الذّهبي** ومدح علمه فقال عنه: «هو من كبار العلماء المشهورين عنده فنون جمّة وعلوم مهمّة. وكان رأسًا في علم اللّسان العربي والأخبار وأيّام النّاس». ولكن بغضّ النّظر عن علمه الغزير وتخصّصه في اللّغة، فقد عرض الذّهبي لمن اتّهمه من ناحية آرائه ومقولاته العقائديّة: «قال أبو بكر البيهقي: كان يرى رأي الكرّامية. ونقل صاحب مرآة الزّمان (سبط ابن الجوزي) أنّه قال: كان ابن قتيبة يميل إلى التّشبيه! قلت: هذا لم يصحّ، وإن صحّ عنه، فسحقًا له،

19 - ابن منظور(ت: 711هـ) لسان العرب، دار صادر، الطبعة الثالثة، بيروت، 1414هـ، 186/13

20 - ابن القيّم، هداية الحيارى، 345/2، سبق ذكره.

فما في الدّين محاباة. وقال مسعود السجزي: سمعت أبا عبد الله الحاكم يقول: أجمعت الأمّة على أنّ القتبيّ (ابن قتيبة) كذّاب».[21]

فإن صحّ ما أورده ابن القيّم على لسانه، فابن قتيبة لا يميل إلى التّشبيه بل يقول بالتّجسيد. وابن القيّم لا يختلف عنه بما أنّه صدّق كلامه واستدلّ به. وبما أنّ ابن القيّم من تلاميذ ابن تيميّة فيبدو أنّ «التيميّين» والحنابلة يشنّعون على المشبّهة والمجسّمة كفرقة الكراميّة، ولكنّهم لا يرون حرجًا أبدًا في الاستدلال به على «البشارة بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم».

ورد في معجم البلدان لياقوت الحموي (ت: 626هـ) أنّ «سَاعِير: في التّوراة اسم لجبال فلسطين نذكره في فاران وهو من حدود الرّوم، وهو قرية من النّاصرة بين طبريذة وعَكا، وذكره في التوراة - جاءَ من سينا - يريد مناجاته لموسى على طور سينا وأشرق من ساعير إشارة إلى ظهور عيسى ابن مريم عليه السّلام من الناصرة واستعلَن من جبال فاران وهي جبال الحجاز يريد النبيّ عليه الصّلاة والسّلام، وهذا في الجزء العاشر في السّفر الخامس من التّوراة والله أعلم»[22]

لخّص ياقوت الحموي في هذا النصّ السّند الأساسي الذي اعتمده الفكر الإسلامي في التّدليل على البشارة. وبالرّجوع إلى هذا السّند الشّهير من المقطع التوراتيّ وجدناه ذا تنويعات عديدة واختلافات في صلب النصّ حسب المترجم والمحقّق «للكتاب المقدّس» أي حسب النّسخة المنشورة بين المسلمين، التي تختلف بدورها عن النّسخ الموجّة إلى الهدف المراد إقناعه أو تنصيره. ونعرض لنسختين فقط من هذا المقطع من سفر التثنية، الأوّل يقول: «وَهذِهِ هِيَ الْبَرَكَةُ الَّتِي بَارَكَ بِهَا مُوسَى، رَجُلُ اللهِ، بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ مَوْتِهِ، فَقَالَ: جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ، وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ، وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وَأَتَى مِنْ رِبْوَاتِ الْقُدْسِ، وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ».[23]

والثّاني يقول: «وَهَذِهِ هِيَ الْبَرَكَةُ الَّتِي بَارَكَ بِهَا مُوسَى، رَجُلُ اللهِ، بَنِي إِسْرَائِيلَ قَبْلَ مَوْتِهِ، فَقَالَ: «أَقْبَلَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ وَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَعِيرَ وَتَأَلَّقَ فِي جَبَلِ فَارَانَ؛ جَاءَ مُحَاطاً بِعَشَرَاتِ الأُلُوفِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ وَعَنْ يَمِينِهِ يُومِضُ بَرْقٌ عَلَيْهِمْ».

السّفر الخامس من التّوراة هو سفر التثنية الّذي يكمل الخماسيّة في العهد القديم. والمقطع السّابق هو بداية الإصحاح الثَّالِث وَالثَّلاَثِينَ. ولا غرابة في اختلاف النصّين، إذ «الكتاب المقدّس» يفوق ألوان الطاووس والطّيف في الألوان، من حيث عدد ترجماته وتغيّر الأسفار وترتيبها فيه. نلاحظ مجموعة من الاختلافات

21 - شمس الدّين الذهبي (ت: 748هـ) سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرّسالة، الطبعة الثالثة، بيروت، 1405هـ/1985م، 299/13

22 - ياقوت الحموي (ت: 626هـ) معجم البلدان، دار صادر، الطبعة الثانية، بيروت، 1995م، 171/3

23 - سفر التّثنية، 33/1

والتقابلات اللغويّة في اللّفظ والبناء: (جاء- أقبل)، (أشرق لهم- أشرف عليهم)، (تلألأ من- تألّق في)، (أَتَى مِنْ رِبْوَاتِ الْقُدْسِ- جَاءَ مُحَاطاً بِعَشَرَاتِ الأُلُوفِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ)، (وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ- وَعَنْ يَمِينِهِ يُوْمِضُ بَرْقٌ عَلَيْهِمْ). هل يمكن فهم المضامين المعنويّة في النصّين؟ وهل تُستخرج «بشارة بنبيّ اسمه أحمد»؟ مهما كان التأويل بعيدًا والتعسّف على المصطلح والنصّ شديدًا. فكيف طوّع المفسّرون ذلك المقطع التّجسيدي البعيد عن التّبشير، واستنبطوا منه تبشيرًا برسول الإسلام؟ ذلك ملخّص ما قيل وما يقال وما يستنسخ إلى اليوم. لا جديد فيه إلاّ بالتفصيل والإسهاب وإضافة مراجع وشهادات من هنا وهناك أو الإسراع إلى تأويل كتابات بعيدة في المبنى والمعنى.

فلننتقل إلى الجانب التّطبيقي من البحث لعلّنا نعثر على شيء من الابتكار وحسن التّخريج على الأقلّ. وقد اخترنا الفخر الرّازي أنموذجًا نظرًا للمكانة التي حظي بها في الفكر الإسلامي الذي يَنظر إليه منظّرًا من الطراز الرّفيع ومتكلّمًا ضليعًا.

الفخر الرّازي في تقصّياته عن البشارات:

توقّفنا مع أنموذج في تفسير القرآن يتميّز بأنّه يجمع بين النّقل والعقل والكلام، أي الجدل والحجاج. ومن خلال هذا الأنموذج، نتعرّف على بعض أوجه النّقل ومفهومه عند أهل النّقل. ونرى عند أهل العقل كيف يُحارب العقلُ بالعقل. وفي الكلام نرى كيف أنّ أهل النّقل هم أبرع المتكلّمين وأسبق النّاس إلى الكلام، ومع ذلك فهم يتبرّؤون من الكلام ويحرّمون تعلّمه أو استعماله عند غيرهم إلى حدّ تكفيرهم. وفي الجدل، نتبيّن كيف أنّ الّذين يدّعون أنّهم أهل الحديث والنّقل يركّزون على السّفسطة والتعسّف على النصّ والتأويلات البعيدة لإثبات مقولاتهم. هذا الأنموذج هو مقتطفات من مفاتيح الغيب للرّازي. واخترناه لأنّه زمنيًّا حلقة الوسط في العلم والثقافة وفهم القرآن والإسلام منذ القرن الثاني الهجريّ إلى اليوم. ووقفنا على تفسيره لقوله تعالى: (يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ (40) البقرة) لأنّه جمع فيه، كما قال، «بعض ما جاء في كتب **الأنبياء المتقدمّين** من البشارة بمقدم محمّد صلّى الله عليه وسلّم». والواقع أنّه جمع كلّ ما وجده في التّوراة ممّا رآه «بشارة بمقدم محمّد صلّى الله عليه وسلّم». وهو ما ذكره أهل الحديث قبله مثل ابن قتيبة، وهو ما يكرّره أهل الحديث بعده إلى اليوم.

بدأ الرّازي تفسيره للآية، كعادته، غالبًا، بقوله: «اعلم أنّ فيه مسائل». وما يتعلّق بموضوعنا، جاء في «المسألة الثّالثة: في النّعم المخصوصة ببني إسرائيل».[24]

ومراحل التناقض والمغالطة واضحة في تفسير الرّازي للآية ((40) من سورة البقرة) منذ البداية:

---

24 - فخر الدّين الرّازي (ت: 606هـ) التفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار إحياء التّراث العربي، الطبعة: الثالثة، بيروت، 1420هـ، 474/3

فإثبات أنّ «الكتب المتقدّمة فيها بشارة بمقدم محمّد صلّى الله عليه وسلّم» تجاوز كبير، فعبارتا الكتب المتقدّمة وعلم الأوائل تعنيان في تراثنا كتب بني إسرائيل واليهود والمسيحيّين وعلومهم.

ومراجعنا التراثيّة في التّاريخ والتّفسير خصوصًا، وإن كانت مليئة بما ورد في تلك الكتب وبما رواه أحبار اليهود والنّصارى الّذين أسلموا أو الّذين بقوا على دينهم. فإنّها تناقض ذلك، لأنّها تؤكّد للمسلمين أنّ الكتب المتقدّمة محرّفة. ولولا أنّ القرآن الكريم ذكر ذلك لما كان لهم أن يعرفوه. وانبرى الكثيرون من علماء المسلمين ينقدون التّوراة ويغربلونها وينخلونها فأبرزوا ما فيها من اختلاف كثير لأنّها من عند غير الله، وأشهر أولئك ابن حزم وابن القيّم. والتّناقض هو أنّ علماء المسلمين اعتمدوا تلك التّوراة نفسها ينقّبون فيها عن «البشارة بمقدم محمّد صلّى الله عليه وسلّم». وذلك ما فعل ابن قتيبة وابن القيّم والرّازي وكثيرون قبلهم وبعدهم، على الرغم من تأكيدهم التّحريف الذي أصابها، فكأنّهم «يؤمنون ببعض الكتاب ويكفرون ببعض» في شأن التوراة، فصدّقوا منها ما شاؤوا، أو تظاهروا بذلك، وكذّبوا ما أرادوا حسب الهدف والغاية. فهل كان الرّازي، في تفسيره لتلك الآية الكريمة، مجرّد ناقل لما وجد في الكتب المتقدّمة؟ **الجواب**: كلاّ. لأنّ كلامه في هذه المسألة مبنيّ على قناعات ثلاث على الأقلّ هي: أنّ الكتب المتقدّمة بشّرت بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم.

وأنّ العهد في الآية ((40) البقرة) هو «محمّد»! وأنّ الكتب المتقدّمة صادقة فيما ترويه. ولئن لم تصرّح بتلك البشارة وجب تأويلها وتوليدها لتدلّ على ذلك. يقول بعد ذلك: «ولنذكر الآن بعض ما جاء في كتب **الأنبياء المتقدّمين** من البشارة بمقدم محمّد صلّى الله عليه وسلّم».[25]

ماذا ينتظر القارئ من قول الرّازي «كتب **الأنبياء المتقدّمين**»؟ أليس هم أنبياء الله أجمعين الّذين ذكرهم القرآن الكريم؟ أليست الكتب خاصّة بالرّسل إذ لم يخبرنا القرآن أنّ الله عزّ وجل أنزل كتابًا، مثلاً، على إدريس أو نوح أو إسحاق أو سليمان. وأيّ عالم مسلم يعتبر أنّ السّفر الأوّل من التّوراة، وهو سفر التكوين، من كتب الأنبياء المتقدّمين؟ فعلى من أنزله الله عزّ وجلّ، وهو مجهول التّاريخ والتّأليف؟ وكيف لمفسّر أن يعتبر كهّان بني إسرائيل أنبياء متقدّمين؟ وما دليله وحجّته على ذلك؟ يقول الرّازي: «وقال ابن عبّاس: إنّ الله تعالى كان عهد إلى بني إسرائيل في التّوراة أنّي باعث من بني إسماعيل نبيّاً أمّيّاً فمن تبعه وصدّق بالنّور الّذي يأتي به، أي بالقرآن، غفرت له ذنبه وأدخلته الجنّة، وجعلت له أجرين: أجراً باتّباع ما جاء به موسى وجاءت به سائر أنبياء بني إسرائيل، وأجراً باتّباع ما جاء به محمّد النبيّ الأميّ من ولد إسماعيل».[26]

كلام الرّازي شاهد على ما جرّه النّقل من الإسرائيليّات والخرافات وما غرسه من اقتناعات خاطئة في أذهان المسلمين، شوّهت فهمهم لقرآنهم وإسلامهم. ما نسبه الرازي إلى ابن عبّاس هو اختلاق محض. فإمّا

25 - المرجع نفسه، 474/3

26 - المرجع نفسه، 478/3

أنّ الرُوَاة بين ابن عبّاس والرّازي كذبوا على ابن عبّاس، وهذا لا يستبعد، فآفة الأخبار رواتها، وإمّا أنّ ابن عباس نفسه أخطأ، وهذا مستبعد. وإمّا أنّ بعض أهل التّوراة كذب على ابن عبّاس وصدّقه ابن عبّاس، وهذا هو الأرجح. أمّا التّوراة المنزّلة على موسى فلا أحد يعرف ما فيها، ولم يبق منها آية واحدة منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة. وأمّا التّوراة اليهوديّة فيستحيل أن يوجد فيها ذلك أو أيّ شيء يتعلّق بالإسلام والقرآن والرّسول والمسلمين. فهل كان الرّازي يجهل كلّ ذلك؟ لقد صدّق ما نسب إلى ابن عبّاس وبحث له عن دعم من القرآن الكريم: حيث قال: «وتصديق هذا في قوله تعالى: ((52) القصص) و((54) القصص)!! ومن الحديث: «وتصديقه أيضاً بما نسب إلى أبي موسى الأشعري عن النبيّ أنّه قال: ثلاثة يؤتون أجرهم مرّتين: رجل من **أهل الكتاب** آمن بعيسى ثمّ آمن بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم فله أجران».[27]

إنّها لسفسطة عجيبة اعتمدها في ذكره للحديث الأخير: هل ورد فيه أنّ الرّسول ذكر بني إسرائيل أو التّوراة؟ ولماذا لم يذكر من آمن بموسى ولا من آمن بداود؟ لماذا أفرد عيسى؟ لأنّ عيسى هو الوحيد الّذي بشّر بأحمد. فذلك الحديث يلغي ضمنيًا أن يكون نبيّ قبل عيسى بشّر بأحمد. وقوله: «رجل من أهل الكتاب آمن بعيسى» لأنّ ذلك الرّجل سمع البشارة بأحمد التي أشاعها عيسى في حياته بين المؤمنين به، والمفروض أنّهم توارثوا تلك البشارة شفويًا أو كتابيًا. بينما لم يشر إلى التّبشير به قبل عيسى. أمّا إثبات أنّ مصطلح عهد يعني محمّدًا! فهذا لا يستقيم لغةً واصطلاحًا، وعلى الرغم من ذلك اعتمده في التأويل المتعسّف، حيث قال: «إنّ المراد من هذا العهد ما أثبته في الكتب المتقدّمة من وصف محمّد صلّى الله عليه وسلّم، وأنّه سيبعثه على ما صرّح بذلك في سورة المائدة بقوله: «وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ» (12)». بعد أن أقرّ الرّازي أنّ الكتب المتقدّمة ذكرت الرّسول باسمه، ها هو يقرّ أنّها ذكرت صفاته أيضًا! هذه الإضافة ليست خاصّة بالرّازي وإنّما أشاعها المحدّثون منذ نهاية القرن الأوّل الهجري: «عن عطاء بن يسار قال: لقيتُ عبد الله بن عمرو بن العاص فقلت: أخبرني عن صفة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في التّوراة. فقال: «أجلْ، إنَّهُ لموصوف في التوراة ببعضِ صفته في القرآن: «يا أيها النبيّ إنّا أرسَلنَاكَ شاهدًا ومُبشِرًا ونَذِيرًا» [الآحزاب: 45]» وحِرْزًا للأمّيين. أنت عبدي ورسولي سمّيتك المتوكّل ليس بِفَظّ ولا غليظ ولا سَخَّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيّئة السيّئة ولكن يعفو ويصفح. ولن يقبضه الله حتّى يُقيم به الملّة العوجاء بأن يقولوا: لا إِله إِلا الله ويفتح به أعينًا عُمْيًا وآذانًا صُمّا وقلوبًا غُلْفًا»».[28]

هناك ذكاء ومكر في نسبة الرّواية إلى عبد الله بن عمرو بن العاص، لأنّه اشتهر باهتمامه بالكتب المتقدّمة وجمع منها حِمْل بعير حسب بعض الروايات. وسواء صحّت الرواية عنه أو كذبت عليه فهي موضوعة. وبمثل تلك الروايات أثبت أهل الحديث كلّ ما يتعلّق «بالبشارة بمقدم محمّد صلّى الله عليه وسلّم». ولم يكتفوا بذلك، بل اعتمدوا السّفسطة. فكيف سيثبت الرّازي أنّ «العهد» في ((40) البقرة) يعني «محمّدًا»؟ قال: «أمّا

27 - المرجع نفسه، 479/3

28 - ابن الأثير (ت: 606هـ) جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، الطبعة الأولى، مكتبة الحلواني، القاهرة، 1392هـ/ 1972م، 261/11

قوله تعالى: «وَأَوْفُواْ بِعَهْدِى أُوفِ بِعَهْدِكُمْ»، فاعلم أنّ العهد يضاف إلى المعاهد والمعاهد جميعاً وذكروا في هذا العهد **قولين**: **الأوّل**: أنّ المراد منه جميع ما أمر الله به من غير تخصيص ببعض التكاليف دون بعض. **ثانيها**: قال الحسن: المراد منه العهد الذي أخذه الله تعالى على بني إسرائيل في قوله تعالى: «وَبَعَثْنَا مِنهُمُ اثني عَشَرَ نَقِيباً وَقَالَ الله إنّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصّلاة وَءاتَيْتُمْ الزّكاة (المائدة، 12)». **وثالثها**: وهو قول جمهور المفسّرين أنّ المراد أوفوا بما أمرتكم به من الطّاعات ونهيتكم عنه من المعاصي أوف بعهدكم».[29]

ذكر الرّازي ثلاثة أقوال. وعنده أنّها تمثّل قولًا واحدًا على الرغم من اختلافها. لذلك، قال بعد ذلك مباشرة: «المراد من هذا العهد ما أثبته في الكتب المتقدّمة من وصف محمّد صلّى الله عليه وسلّم وأنّه سيبعثه على ما صرّح بذلك في سورة المائدة». لا فائدة من اللّغو الّذي تاه فيه الرّازي تيه بني إسرائيل في الصّحراء ليستنتج: «أنّ قوله: «فمنحهم العزّ» لا يجوز أن يكون المراد إسماعيل، لأنّه لم يحصل عقيب سكنى إسماعيل هناك عزّ. فوجب حمله على محمّد عليه السّلام»! من أيّ وجه جعل الرازي لفظة «العزّ» تدلّ على «إنسان» نبيًّا كان أو جبّارًا ليؤكّد: «فوجب حمله على محمّد عليه السّلام»!! وكيف توصّل إلى ذلك؟ انطلق الرازي من نصّ توراتي وجد فيه «فمنحهم العزّ». ثمّ قابل ذلك بالآية الكريمة ((40) البقرة) وتوقّف في قوله تعالى: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي). ثمّ جعل كلاًّ من «عهد» و«عزّ» يدلاّن على إنسان وأنّ ذلك الإنسان هو نبيّ! وواصل في سفسطته أنّ ذلك النبيّ لا يمكن أن يكون إسماعيل وانتهى بقوله: «فوجب حمله على محمّد عليه السّلام»!! فعند الرّازي «فمنحهم العزّ» في «التّوراة» تعني «فمنحهم محمّدًا» وعنده: (وَأَوْفُوا بِعَهْدِي) تعني «فأوفوا بمحمّدي»!

تلك هي «قواعد» جداله وركائز حجاجه، وكلّها مختلقة واهية لا تساوي شيئًا. وفوق ذلك قام بتوليد التّوراة ما ليس في بطنها. حيث قال: «ولنذكر الآن بعض ما جاء في كتب **الأنبياء المتقدّمين** من البشارة بمقدم محمّد صلّى الله عليه وسلّم». هنا، بدأ يذكر النّصوص التوراتيّة الّتي اعتبرها تبشّر بمقدم محمّد. وقد وردت تلك النّصوص متداخلة، فرأينا ترتيبها حسب الأسفار التي وردت فيها.

مصادر الرّازي:

اعتمد الرّازي خمسة مصادر توراتيّة، هي أسفار التّكوين والتّثنية وحبقوق ودانيال وإشعياء. السّفر الأوّل من التّوراة هو سفر التكوين. لا يعرف من كتبه ولا من نظّمه ولا زمن كتابته. والأرجح أنّه بُدئ في تصنيفه في بابل في القرن الخامس أو السّادس ق.م. قال الرّازي: « فالأوّل: جاء في الفصل التّاسع من السّفر الأوّل من التّوراة أنّ هاجر لمّا غضبت عليها سارة تراءى لها ملك. فقال لها: يا هاجر: ستحبلين وتلدين ابناً

29 - الرّازي، مفاتيح الغيب، 478/3

وتسمينه إسماعيل». لا يرى الرّازي في هذا النصّ بشارة بل هو ردّ على القائلين بذلك: «واعلم أنّ الاستدلال بهذا الكلام أنّ هذا الكلام خرّج مخرج البشارة وليس يجوز».[30]

بعد النبيّ المجهول الّذي وضع السّفر الأوّل من التّوراة واكتشفه الرّازي واستشهد به، نتعرّف على بقيّة الأنبياء المتقدّمين في علم الرّازي وتقديره. حيث ينتقل إلى السّفر الخامس وهو سفر التثنية.

ظهر سفر التّثنية تاريخيًّا بعد عزرا فلا علاقة له بموسى. وهو مجهول المؤلّف، والتاريخ. قال الرّازي: «والثّاني: جاء في الفصل الحادي عشر من السفر الخامس: «إنّ الربّ إلهكم يقيم لكم نبيّاً مثلي من بينكم ومن إخوانكم». وفي هذا الفصل أنّ الربّ تعالى قال لموسى: «إنّي مقيم لهم نبيّاً مثلك من بين إخوانهم وأيّما رجل لم يسمع كلماتي الّتي يؤدّيها عنّي ذلك الرّجل باسمي أنا أنتقم منه». وهذا الكلام يدلّ على أنّ النبيّ الّذي يقيمه الله تعالى ليس من بني إسرائيل. فإن قيل قوله: «**من بينكم**» يمنع من أن يكون المراد محمّداً صلّى الله عليه وسلّم، لأنّه لم يقم من بين بني إسرائيل، قلنا: بل قد قام من بينهم. لأنّه عليه السّلام ظهر بالحجاز فبعث بمكّة، وهاجر إلى المدينة وبها تكامل أمره. وقد كان حول المدينة بلاد اليهود كخيبر وبني قينقاع والنّضير وغيرهم وأيضاً فإنّ الحجاز يقارب الشّام، وجمهور اليهود كانوا إذ ذاك بالشّام، فإذا قام محمّد بالحجاز فقد قام من بينهم! وأيضاً فإنّه إذا كان **من إخوانهم فقد قام من بينهم** فإنّه ليس ببعيد منهم».[31]

لا ندري حقًّا ما الّذي جعل علماء كابن قتيبة والرّازي وابن القيّم وغيرهم يتجاوزون الحدّ في التعسّف على النصّ وتجاوز سمت اللّغة العربيّة وقواعدها وفقهها؟ هل يستحقّ إثبات بشارة كلّ ذلك الجهد الباطل؟ من يصدّق ما قاله الّرازي في تفسيره لتركيب الجرّ«من بينكم»؟ أحقًّا، يولد الرّسول في الحجاز وينشأ فيه ويبعث فيه، وهو لا يعرف أنّه كان «من بين» بني إسرائيل لأنّ «الحجاز يقارب الشّام وجمهور اليهود كانوا إذ ذاك بالشّام»!؟ وها هو الرّازي يقول له ذلك بعد ستّة قرون من وفاته صلّى الله عليه وسلّم! وكيف تجرّأ الرّازي على اعتبار الرّسول من إخوان بني إسرائيل؟ عن أيّ أخوّة يتحدّث؟ لا غرابة أن يكون موسى قال لقومه: «««إنّ الربّ إلهكم يقيم لكم نبيّاً مثلي من بينكم ومن إخوانكم»»». ولكن إذا اعتبرنا أنّ تلك البشارة تخصّ محمّدًا، فإنّ موسى يكون ألغى كلّ الأنبياء والرّسل الّذين بعثهم الله تعالى من بني إسرائيل وخاصّة داود وسليمان. كيف يكون هذا منطقيًّا عند الرّازي وأمثاله؟ كيف يبشّر موسى قومه بنبيّ يبعث بعده بألفي سنة ويترك التّبشير بمن يبعث بعده بثلاثة قرون تقريبًا وهو داود. فهل ينكر المتكلّمون أنّ داود رسول من الله أنزل عليه الزبور، وهو في هذا مثل موسى. وداود من بني إسرائيل، فهو «من بينهم». وبما أنّ موسى كان يجهل متى سيبعث داود وأين، فإنّه أخبر قومه أنّ داود سيبعث في إخوانهم أي أحفادهم، هذا إن صحّ اللّفظ عن موسى، وهو أمر مستبعد. لا ندري حقًّا هل بشّر موسى قومه بنبيّ بعده. ولئن كان الأمر فهو لا يستبعد أبدًا، فإنّ المشكلة في النصّ المنسوب إلى موسى. وأيًّا كان الأمر، فإنّ تبشير موسى لا يكون إلاّ

---

30 - المرجع نفسه، 479/3

31 - المرجع نفسه، 480/3

بداود و«حمل تلك البشارة على محمّد صلّى الله عليه وسلّم» كما قال الرّازي وغيره هو تجاوز لا مبرّر له تاريخيًا وإسلاميًا.

قال الرازي: «والثّالث: في الفصل العشرين من هذا السّفر: «إنّ الربّ تعالى جاء في طور سيناء وطلع لنا من ساعير وظهر من جبال فاران وصفّ عن يمينه عنوان القدّيسين فمنحهم العزّ وحببّهم إلى الشّعوب ودعا لجميع قدّيسيه بالبركة». وجه الاستدلال: أنّ جبل فاران هو بالحجاز لأنّ في التّوراة أنّ إسماعيل تعلّم الرّمي في بريّة فاران، ومعلوم أنّه إنّما سكن بمكّة. إذا ثبت هذا».

نورد المقاطع التي استعملها الرّازي لمزيد من التّحديد والتدبّر. (وهي من سفر التثنية، 2، 33).

- «جَاءَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ وَأَشْرَقَ لَهُمْ مِنْ سَعِيرَ وَتَلأْلأَ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ وَأَتَى مِنْ رِبْوَاتِ الْقُدْسِ وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ» - «أَقْبَلَ الرَّبُّ مِنْ سِينَاءَ وَأَشْرَفَ عَلَيْهِمْ مِنْ سَعِيرَ وَتَأَلَّقَ فِي جَبَلِ فَارَانَ. جَاءَ مُحَاطاً بِعَشَرَاتِ الأُلُوفِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ وَعَنْ يَمِينِهِ يُومِضُ بَرْقٌ عَلَيْهِمْ» (تثنية، 2، 33). - «إنّ الربّ تعالى جاء في طور سيناء وطلع لنا من ساعير وظهر من جبال فاران وصفّ عن يمينه عنوان القديسين فمنحهم العزّ وحببّهم إلى الشعوب ودعا لجميع قدّيسيه بالبركة».

هذا عند الرّازي، أمّا ابن القيّم في «هداية الحيارى»، فيورد رواية أخرى: «قال في التّوراة في السّفر الخامس: «أقبل الله من سيناء وتجلّى من ساعير وظهر من جبال فاران ومعه ربوات الإظهار عن يمينه». هل تغيّرت النّسخ العربيّة من التّوراة بين الرازي (544-606هـ) وابن القيّم (691-751هـ)؟ لا نعتقد ذلك. هل نشرت في بداية القرن السّابع الهجريّ (بعد وفاة الرازي) نسخة عربيّة مختلفة للتوراة قرأها ابن القيّم؟ الله أعلم، ولكنّه غير مستبعد. هل أنّ علماءنا يروون النّصوص التوراتيّة بالمعنى كعادتهم في رواية الحديث؟ هذا الأرجح إذ تلك هي عادتهم. ولكنّ الأمر أدهى وأمرّ. لأنّ كلّ كلام الرّازي المتعلّق بذلك المقطع التّوراتي يتجاوز أهل النّقل أو أهل الحديث العاديّين لأنّه يصل إلى درجة التلاعب بالمصطلح وقلب المفاهيم. نترك احتجاج الرازي بتركيب «بريّة فاران» في سفر التكوين على أنّها مكّة، لأنّه سخيف ولا يقوم عليه استدلال. فالكاهن الإسرائيليّ المجهول الذي وضع ذلك السّفر، لم يعرف موسى ولا سمعه ولا آمن به. بل اكتفى أن نسب ذلك القول إليه. وهذا المقطع بأيّ صيغة ورد منذ ألفي عام، وبأيّ لغة، لا يخرج عن كونه تجسيدًا أو تشبيهًا، وكان على الرّازي وابن القيّم وأمثالهما أن يبيّنوا ذلك وينفوا ذلك التّشبيه ويلغوه من ثقافة المسلمين، لا أن يحتجّوا به على «بشارة بمقدم محمّد صلّى الله عليه وسلّم»؟ وإذا لم تقع تلك البشارة من قبل موسى، فكيف يتصوّر أنّها تقع من كاهن إسرائيليّ، يؤمن بعزرا ويهوه؟ فهل يقول الرازي وابن القيّم وأمثالهما بالتّشبيه والتجسيد كما يعتقد اليهود؟

الدّلالات المعنوية لذلك المقطع التّوراتيّ:

إنّ للأماكن المذكورة دلالة خاصّة: فسِينَاء هي مولد الشّعب وتحرّره من فرعون مصر، فهي البداية والمنطلق، لذلك استعمل فعل جَاءَ وأَقْبَلَ. إلاّ أنّه في نظر الكهّان الإسرائيليّين، بداية من القرن السّادس ق.م. لم يحقّق «الربّ» شيئًا لذلك «الشّعب المقدّس». و«سَعِير» في الأردنّ وكانت بداية حروب بني إسرائيل بقيادة موسى وانتصارهم على كثير من الشّعوب والقبائل هناك. وتلك الانتصارات استعمل لها الكاهن فعل أَشْرَقَ. و«الْقُدْس» هي كابوس الصّهاينة منذ ذلك التّاريخ السّحيق. وهي محور الانتظار عندهم ومبرّر «الماسيحانية (messianisme)».

تاريخيًا لم يدخل موسى القدس ولا عرفها. ولم يعلّم قومه الشّريعة، لا في القدس ولا في فلسطين، وإنّما في صحراء سيناء. فمن هو ذلك «الربّ» الّذي «أَتَى مِنْ رِبْوَاتِ الْقُدْسِ، وَعَنْ يَمِينِهِ نَارُ شَرِيعَةٍ لَهُمْ»، وفي النّسخة الأخرى «جَاءَ مُحَاطاً بِعَشَرَاتِ الأُلُوفِ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ وَعَنْ يَمِينِهِ يُوْمِضُ بَرْقٌ عَلَيْهِمْ»؟ وعندنا هنا: افتراض وترجيح:

الافتراض: هو «عزرا» الّذي «قرأ الشّريعة في القدس» إذا اعتبرنا أنّ صيغة الماضي في المقطع تدلّ على الماضي حقيقة. واعتبار الكهّان لعزرا «ربّهم» لا يخرج عن الحقيقة. إذ ذكر القرآن الكريم: (وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللّهِ وَقَالَتْ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِؤُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ(30) التّوبة).

التّرجيح: هو «المسيح- ابن داود» الّذي ينتظره اليهود. فالماضي في المقطع يدلّ على الحاضر في سرد الكهّان، وهو عندهم المستقبل القريب المحتوم. فالمقطع أحد النصوص الماسيحانيّة التجسيديّة التي تملأ «الكتاب المقدّس». ومن يستشهد بذلك النصّ على التبشير بأحمد، فلا يمكنه أن ينفي أنّه يؤلّه محمّدًا، إذ لا يمكن فهم البشارة في النصّ إلاّ بتلك الأفعال: جاء (أقبل)، أشرق (أشرف)، تلألأ (تألّق)، وبتلك الصّفات. فيكون التأويل: «جاء الربّ = جاء أحمد»، ونحن نربأ بعلمائنا عن ذلك. والسّؤال المحيّر حقًّا: هل أنّ الرّازي لم ير التّجسيد والشّرك المحض في النصّ التّوراتي؟ يصعب تصديق ذلك وهو الإمام المفسّر أوحد زمانه في المعقول والمنقول و**علوم الأوائل**، كما قال عنه الزّركلي في الأعلام.

قال الرّازي: «قالت اليهود: المراد أنّ النّار لما ظهرت من طور سيناء ظهرت من ساعير نار أيضاً ومن جبل فاران أيضاً، فانتشرت في هذه المواضع. قلنا: هذا لا يصحّ لأنّ الله تعالى لو خلق ناراً في موضع فإنّه لا يقال جاء الله من ذلك إذا تابع ذلك الواقعة وحيٌ نزل في ذلك الموضع أو عقوبة وما أشبه ذلك. وعندكم أنّه لم يتبع ظهور النّار وحيٌ ولا كلام إلاّ من طور سيناء، فما كان ينبغي إلاّ أن يقال ظهر من ساعير ومن

جبل فاران، فلا يجوز وروده، كما لا يقال جاء الله من الغمام إذا ظهر في الغمام احتراق ونيران كما يتّفق ذلك في أيام الرّبيع»![32]

يصعب القبول بمنطق الرازي وتحليله، فهل امتناع مجيء الله من مكان ما مطلق أم مشروط بما شرط هو؟ فإن كان مشروطًا، كما اعتبر، فهو التّجسيد الكامل. وإن كان امتناع مجيء الله من مكان ما مطلقًا، وهو الحقّ، فكيف يقتبسه من أقوال بني إسرائيل ويقول به، ليعتبر ذلك النصّ دليلاً على «البشارة بمقدم محمّد صلّى الله عليه وسلّم»؟

اعتمد الرّازي مصدر حبقوق (Habacuc) ويفترض تاريخيًا أن يكون الكاهن «حبقوق» عاش بين 612 ق.م. و597 ق.م. ولا يعرف عنه ولا عن حياته شيء. وعنه يقول عبد الوهاب المسيري: «حبقوق (Habkuk) تنبّأ في المملكة الجنوبيّة، وكان لاوياً يغنّي في الهيكل وقد تنبّأ في القرن السّابع أثناء حصار الكلدانيين (البابليين) لنينوي. ويرى المختصّون أنّ الإصحاح الثّالث من كتاب حبقوق، ألّفه مجهول ونسبه إلى الكاهن بعد وفاته بزمن طويل».[33]

ولكن الرّازي اعتمده حيث قال: «فَفِي كِتَابِ حَبْقُوقَ بَيَانُ مَا قُلْنَا وهو: جَاءَ اللَّهُ مِنْ طُورِ سَيْنَاءَ وَالْقُدْسِ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ، وَانْكَشَفَتِ السَّمَاءُ مِنْ بَهَاءِ مُحَمَّدٍ وَامْتَلَأَتِ الْأَرْضُ مِنْ حَمْدِهِ. يَكُونُ شُعَاعُ مَنْظَرِهِ مِثْلَ النُّورِ يَحْفَظُ بَلَدَهُ بِعِزِّهِ تَسِيرُ الْمَنَايَا أَمَامَهُ وَيَصْحَبُ سِبَاعُ الطَّيْرِ أَجْنَادَهُ قَامَ فَمَسَحَ الْأَرْضَ وَتَأَمَّلَ الْأُمَمَ وَبَحَثَ عَنْهَا فَتَضَعْضَعَتِ الْجِبَالُ الْقَدِيمَةُ وَاتَّضَعَتِ الرَّوَابِي وَالدَّهْرِيَّةُ، وَتَزَعْزَعَتْ سُتُورُ أَهْلِ مدين ركبت الْخُيُولَ، وَعَلَوْتَ مَرَاكِبَ الِانْقِيَادِ وَالْغَوْثِ وَسَتَنْزِعُ فِي قِسِيِّكَ إِغْرَاقًا وَنَزْعًا وَتَرْتَوِي السِّهَامُ بِأَمْرِكَ يَا مُحَمَّدُ ارْتِوَاءً وَتَخُورُ الْأَرْضُ بِالْأَنْهَارِ، وَلَقَدْ رَأَتْكَ الْجِبَالُ فَارْتَاعَتْ وَانْحَرَفَ عَنْكَ شُؤْبُوبُ السَّيْلِ وَنَفَرَتِ الْمَهَارِي نَفِيرًا وَرُعْبًا وَرَفَعَتْ أَيْدِيَهَا وَجَلًا وَفَرَقًا وَتَوَقَّفَتِ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ عَنْ مَجْرَاهُمَا وَسَارَتِ الْعَسَاكِرُ فِي بَرْقِ سِهَامِكَ وَلَمَعَانِ بَيَانِكَ تُدَوِّخُ الْأَرْضَ غَضَبًا وَتَدُوسُ الْأُمَمَ زَجْرًا لِأَنَّكَ ظَهَرْتَ بِخَلَاصِ أُمَّتِكَ وَإِنْقَاذِ تُرَابِ آبَائِكَ. هَكَذَا نُقِلَ عَنِ ابْنِ رَزِينٍ الطَّبَرِيِّ».[34]

يبدو أنّ الاسم الأخير هو تحريف لاسم ابن ربّن الطّبري (157-240ه) ولم يذكره الرّازي إلاّ في هذا الموضع، ولكن يظهر أنّه اعتمد عليه كثيرًا، وخاصّة على كتابه الدّين والدّولة، وحسبما ذكر **عبد المجيد الشّرفي** فإنّ ابن ربّن الطّبري: «اهتمّ بتتبّع نبوّات الأنبياء على النبيّ فخصّها بتسع وستين صفحة من جملة 144 صفحة، أي قرابة نصف الكتاب».[35]

---

32 - الرّازي، مفاتيح الغيب، 480/3، سبق ذكره.

33 - عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود، 305/13، سبق ذكره.

34 - الرّازي، مفاتيح الغيب، 480/3، سبق ذكره.

35 - عبد المجيد الشّرفي، الفكر الإسلامي في الردّ على النّصارى، الدّار التّونسية للنّشر، 1986م، ص 423

لا ندري من أين أخذ ابن ربّن الطبريّ هذا الكلام ونسبه إلى حبقوق وكتابه. وكان على الرّازي أن يدقّق في منقولاته وشواهده ولا يقول ذلك السّخف، الذي يتجاوز الاعتماد على الإسرائيليّات ليصل درجة الاختلاق والتّحريف. تغلب عبارات الدّيباجة والتسبيح على الإصحاح الثَّالِث والأخير لكتاب حبقوق.[36]

ويبدو أنّ ابن ربّن وضع بدوره نصّا توراتيّا شبيهًا بعمل كهّان بني إسرائيل وقام بأسلمته بحشر اسم النبيّ محمّد فيه. وممّا جاء في الإصحاح الثَّالِث من كتاب حبقوق في نسخة «فانديك»، نقتصر على المقطع: 3-7: «اَللهُ جَاءَ مِنْ تِيمَانَ، وَالْقُدُّوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ. سِلاَهْ. جَلاَلُهُ غَطَّى السَّمَاوَاتِ، وَالأَرْضُ امْتَلأَتْ مِنْ تَسْبِيحِهِ. وَكَانَ لَمَعَانٌ كَالنُّورِ. لَهُ مِنْ يَدِهِ شُعَاعٌ، وَهُنَاكَ اسْتِتَارُ قُدْرَتِهِ. قُدَّامَهُ ذَهَبَ الْوَبَأُ، وَعِنْدَ رِجْلَيْهِ خَرَجَتِ الْحُمَّى. وَقَفَ وَقَاسَ الأَرْضَ. نَظَرَ فَرَجَفَ الأُمَمُ وَدُكَّتِ الْجِبَالُ الدَّهْرِيَّةُ وَخَسَفَتْ آكَامُ الْقِدَمِ. مَسَالِكُ الأَزَلِ لَهُ. رَأَيْتُ خِيَامَ كُوشَانَ تَحْتَ بَلِيَّةٍ. رَجَفَتْ شُقَقُ أَرْضِ مِدْيَانَ». وعندما نقارنه بما ورد في نسخة دلال نجيب الحديثة: «قَدْ أَقْبَلَ اللهُ مِنْ أَدُومَ، وَجَاءَ الْقُدُّوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ. غَمَرَ جَلاَلُهُ السَّمَاوَاتِ وَامْتَلأَتِ الأَرْضُ مِنْ تَسْبِيحِهِ. إِنَّ بَهَاءَهُ كَالنُّورِ، وَمِنْ يَدِهِ يُوْمِضُ شُعَاعٌ، وَهُنَاكَ يَحْجُبُ قُوَّتَهُ. يَتَقَدَّمُهُ وَبَأٌ، وَالْمَوْتُ يَقْتَفِي خُطَاهُ. وَقَفَ وَزَلْزَلَ الأَرْضَ، تَفَرَّسَ فَأَرْعَبَ الأُمَمَ، انْدَكَّتِ الْجِبَالُ الأَبَدِيَّةُ وَانْهَارَتِ التِّلاَلُ الْقَدِيمَةُ، أَمَّا مَسَالِكُهُ فَهِيَ مِنَ الأَزَلِ. لَقَدْ رَأَيْتُ خِيَامَ كُوشَانَ تَنُوءُ بِالْبَلِيَّةِ وَشُقَقَ أَخْبِيَةِ دِيَارِ مِدْيَانَ تَرْجُفُ رُعْباً». ندرك أنّ أسفار «الكتاب المقدّس» هي كتب مفتوحة المصدر (Open Source) يحرّرها من شاء كما شاء، المهمّ أن يلتزم المترجم أو المجدّد بالمحورين الأساسيين لذلك الكتاب، وهما تكريس الشّرك وجعله «سماويّا»، وتأكيد عقيدة الانتظار المتمثّلة في «الماسيحانيّة»، وما قرأناه من سفر حبقوق لا يخرج عن ذلك، وإن جدّدت اللّغة واختيرت ألفاظ عوضًا عن غيرها أو غيّرت بما يناسب المعنى. وقد لاحظنا أنّ «حبقوق» جعل «بطلين» لقصّته هما «الله»، تعويضًا لكلمة «الربّ» الأصليّة، و«الْقُدُّوسُ» تعويضًا لكلمة «المسيح». ولا يمكن اعتبار الجملتين المعطوفتين «اَللهُ جَاءَ مِنْ تِيمَانَ وَالْقُدُّوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ» تتحدّثان عن شخصيّة واحدة، نظرًا لواو العطف، ونظرًا لاختلاف ظرف المكان. على الرغم من ذلك، نجد الرّاوي يتحدّث عن شخصيّة واحدة واصفًا إيّاها بضمير الغائب المفرد: «جَلاَلُهُ غَطَّى السَّمَاوَاتِ، وَالأَرْضُ امْتَلأَتْ مِنْ تَسْبِيحِهِ»، ساردًا أحداثًا قامت بها شخصيّة واحدة: «وَقَفَ وَقَاسَ الأَرْضَ. نَظَرَ فَرَجَفَ». ثمّ خاطب شخصيّة واحدة: «هَلْ عَلَى الأَنْهَارِ حَمِيَ يَا رَبُّ؟ هَلْ عَلَى الأَنْهَارِ غَضَبُكَ؟ أَوْ عَلَى الْبَحْرِ سَخَطُكَ حَتَّى إِنَّكَ رَكِبْتَ خَيْلَكَ». وهنا يتبيّن أنّ الرّاوي يعني في سرده كلّه شخصيّة واحدة. وعبّر عن ذلك بقوله «يَا رَبُّ». ومن المؤكّد أنّ حبقوق لا يعتبر الله عزّ وجلّ ربّه، وإنّما هو يعني «يهوه» إله بني إسرائيل في العهد القديم. وقد جاء قوله، بعد ذلك «فَإِنِّي أَبْتَهِجُ بِالرَّبِّ وَأَفْرَحُ بِإِلهِ خَلاَصِي. اَلرَّبُّ السَّيِّدُ قُوَّتِي» ولم يذكر اسم الجلالة. فمن هو «الْقُدُّوسُ مِنْ جَبَلِ فَارَانَ»، وأين دوره في الرّواية وهو «بطل»؟ هو بطل «سلبيّ» دارت كلّ تلك الأحداث التي قام بها «الربّ القادم من تيمان» من أجله وهو ينتظر نهايتها ليقوم بدوره بعد ذلك. واستوجب هذا الفصل بين الشّخصيتين اختلاف المكان الّذي يوجد فيه كلّ واحد منهما: «الربّ في تيمان» في السّماء و«الْقُدُّوسُ القادم مِنْ جَبَلِ

---

36 - حبقوق، 3

فَارَانَ» في الأرض. وهذا الثّاني هو «المسيح-غصن داود» الّذي ينتظره بنو إسرائيل وجاء «الربّ» لتحقيق الحلم الإسرائيلي: «خَرَجْتَ لِخَلَاصِ شَعْبِكَ، لِخَلَاصِ مَسِيحِكَ».

ذلك هو المضمون الأصليّ لكلّ تلك النّصوص: ترسيخ عقيدة معيّنة هي انتظار المسيح من نسل داود يعيد إسرائيل. وما تلك الأماكن المذكورة إلاّ كناية عن حدود إسرائيل الكبرى، التي سيؤسّسها المسيح المنتظر عند بني إسرائيل. فلا علاقة لفظيّة ولا معنويّة ولا جغرافيّة لتلك النّصوص بالتبشير بالنبيّ محمّد. وإنّ اسم الجلالة، الله، في «الكتاب المقدّس» لا أثر له في النّسخ الأصليّة الإغريقيّة من «العهد القديم» المعروفة بالسبعينيّة (septante) وهي الّتي ترجمت عنها بقيّة النّسخ إلى مختلف اللّغات. ولا يوجد اسم الجلالة إلاّ في النّسخ العربيّة من «الكتاب المقدّس». ونلاحظ أخيرًا أنّ ابن القيّم استشهد بالمقطع نفسه.

اعتمد الرازي مصدرًا رابعًا هو: دانيال (Daniel) الذي كان أحد المتنبّئين في آخر أيّام مملكة يهوذا. وكان من بين السّجناء المنفيّين إلى بابل: «وكان بعض الباحثين يرى أنّ هذا السّفر كتبه علماء المجمع الكبير. ولكنّ معظم العلماء يرون الآن أنّ الجزء الأكبر كُتب عام 300 ق.م. أمّا الثاني، فكُتب في عهد أنطيوخوس الرّابع، في وقت كانت اليهوديّة تتعرّض فيه للاضطهاد الشّديد على يد هذا الحاكم السلوقي، ولذا فإنّ رسالة الأمل التي يحملها السّفر مناسبة لعصره».[37]

قال الرّازي: «والسّابع: قال دانيال لبختنصر حين سأله عن الرّؤيا التي كان رآها من غير أن يقصّها عليه: رأيت أيّها الملك منظراً هائلاً [...] فهذه هي البشارات الواردة في الكتب المتقدّمة بمبعث رسولنا محمّد صلّى الله عليه وسلّم».[38]

ما الّذي جعل الرّازي يجد دليله السّابع على «البشارات الواردة في الكتب المتقدّمة بمبعث رسولنا محمد صلّى الله عليه وسلّم» في «تفسير دانيال لحلم بختنصّر؟ لا شيء. ما ورد في آخر كلام دانيال: «ويقيم إله السّماء في تلك الأيّام مملكة أبديّة لا تتغيّر ولا تزول، وإنّها تزيل جميع الممالك وسلطانها يبطل جميع السلاطين، وتقوم هي إلى الدّهر الدّاهر» يشير إلى حلم قيام الدّولة الإسرائيلية في آخر الزّمن. والعجب، كيف استطاع الرّازي أن يجد علاقة بين «تفسير حلم» يفترض أنّه وقع في القرن السّادس ق.م. وكتب بعد ذلك بزمن بعيد، وبين موسى الّذي مرّت على وفاته سبعة قرون، وبين «البشارة بالرّسول صلّى الله عليه وسلّم»؟ جاء «حلم نبوخذناصر» وإعلان تفسير الحلم لدانيال في الإصحاح الثّاني من سفر «دانيال»، و«دانيال يفسّر الحلم» في المقطع (31-45) من الإصحاح نفسه. ولتقديم توضيح أكبر لما استدلّ به الرّازي، يكون مفيدًا وضع الأحداث في نسقها التاريخيّ: بختنصّر أو نبوخذناصر (Nabuchodonosor II) كان ملكًا من 605 ق.م. إلى 562 ق.م. ويعتبر من أعظم ملوك الإمبراطوريّة الكلدانيّة. وكانت بابل هي العاصمة. وهذا الملك

37 - عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهودية، 309/13، سبق ذكره.

38 - الرّازي، مفاتيح الغيب، 482/3، سبق ذكره.

هو الّذي قضى على مملكة يهوذا ودمّر القدس وأحرق المسجد الأقصى ورحّل جانبًا كبيرًا من بني إسرائيل عن فلسطين وعوّضهم بسكّان آخرين ونفى الكهّان والأرستقراطية الإسرائيليّة إلى بابل. كان ذلك يوم 16 مارس 597 ق.م. لمّا احتلّ بختنصّر الثّاني أورشليم (القدس). وبذلك انتهي أمر بني إسرائيل وتاريخهم، إذ احتلّت قبل قرن ونصف من ذلك التاريخ مملكة إسرائيل وشرّد بنو إسرائيل.

اعتمد الرّازي مصدرًا آخر هو إشعياء (Isaïe) وأشعياء اسم نبيّ من أهمّ أنبياء اليهود (حوالي 734-680 ق.م) بل هو أعظم أنبياء العهد القديم قاطبةً. كان من أسرة نبيلة، أو ربّما من دم ملكيّ كما كان ذا ثروة طائلة. ولذا، كان مقرّباً من البلاط الملكي. ويُقال إن منَسَّى أعدمه، وكان أشعياء من الأنبياء الّذين اتّجهوا إلى القضيّة الاجتماعية، فهاجم الأثرياء والحكّام لتَقبُّلهم الرشاوى وظلمهم المساكين، وبذخهم وترفهم وطمعهم وجشعهم وسكرهم، وانعدام الحسّ الأخلاقي عندهم.[39]

لا ندري لماذا غفل المسيري في هذه المسألة التاريخيّة، فاليهوديّة لم تظهر بعد ليكون لها أنبياء! وما كان لليهود نبيّ قطّ غير أحبارهم. ويقال إنّ أشعياء هو ابن عاموص، عائلة أرستقراطيّة في القدس. ويقال إنّه تنبّأ في عهد الملك آخاز (727) (714-Achaz ق. م) وابنه حزقيا (714) (687-Ézéchias ق. م.) وابنه منسّى (687) (641-Manassé ق.م). فهل كان آخر الأنبياء الّذين أرسلهم الله إلى من تبقّى من بني إسرائيل في مملكة يهوذا قبل أن تندثر بدورها عام 586 ق.م؟ أم كان مصلحًا اجتماعيًّا بعيد النظر سديد الرّأي ثاقب البصيرة؟ الله أعلم. وإذا كان منسّى هو الّذي أعدمه، وهو أمر عادي عند ذلك الطاغية، فيستحيل أن يكون إشعياء هو الّذي كتب السّفر المنسوب إليه. قال الرّازي «والرّابع: ما جاء في كتاب إشعياء في الفصل الثّاني والعشرين منه: «قومي فأزهري مصباحك، يريد مكّة، فقد دنا وقتك وكرامة الله تعالى طالعة عليك فقد تجلل الأرض الظلام وغطى على الأمم الضباب والربّ يشرق عليك إشراقاً ويظهر كرامته عليك تسير الأمم إلى نورك. ويحجونك ويأتيك ولدك من بلد بعيد لأنّك أمّ القرى. ويساق إليك كباش مدين ويأتيك أهل سبأ ويتحدثون بنعم الله ويمجدونه وتسير إليك أغنام فاران ويرفع إلى مذبحي ما يرضيني وأحدث حينئذ لبيت محمدتي حمداً» فوجه الاستدلال أنّ هذه الصّفات كلّها موجودة لمكّة. وقوله: «وأحدث لبيت محمدتي حمداً معناه أنّ العرب كانت تلبّي قبل الإسلام فتقول: «لبيك لا شريك لك إلا شريك هو لك تملكه وما ملك» ثم صار في الإسلام: «لبيك اللهم لبيك لا شريك لك لبيك». فهذا هو الحمد الذي جدّده الله لبيت محمدته. وأيضاً فإنّ كتاب أشعياء مملوء من ذكر البادية وصفتها».[40]

قبل أن نناقش أقوال الرّازي وتأويلاته البعيدة، نقارن ذلك بالنصّ الأصلي الذي بين أيدينا اليوم:

---

39 - عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود، 300/13. سبق ذكره. وانظر: عبد المجيد الشرفي، الفكر الإسلامي، ص 490، سبق ذكره.

40 - الرّازي، مفاتيح الغيب، 481/3

«قُومِي اسْتَنِيرِي لأَنَّهُ قَدْ جَاءَ نُورُكِ وَمَجْدُ الرَّبِّ أَشْرَقَ عَلَيْكِ. لأَنَّهُ هَا هِيَ الظُّلْمَةُ تُغَطِّي الأَرْضَ وَالظَّلاَمُ الدَّامِسُ الأُمَمَ. أَمَّا عَلَيْكِ فَيُشْرِقُ الرَّبُّ، وَمَجْدُهُ عَلَيْكِ يُرَى. فَتَسِيرُ الأُمَمُ فِي نُورِكِ، وَالْمُلُوكُ فِي ضِيَاءِ إِشْرَاقِكِ. اِرْفَعِي عَيْنَيْكِ حَوَالَيْكِ وَانْظُرِي. قَدِ اجْتَمَعُوا كُلُّهُمْ. جَاءُوا إِلَيْكِ. يَأْتِي بَنُوكِ مِنْ بَعِيدٍ وَتُحْمَلُ بَنَاتُكِ عَلَى الأَيْدِي. حِينَئِذٍ تَنْظُرِينَ وَتُنِيرِينَ وَيَخْفُقُ قَلْبُكِ وَيَتَّسِعُ، لأَنَّهُ تَتَحَوَّلُ إِلَيْكِ ثَرْوَةُ الْبَحْرِ، وَيَأْتِي إِلَيْكِ غِنَى الأُمَمِ. تُغَطِّيكِ كَثْرَةُ الْجِمَالِ، بُكْرَانُ مِدْيَانَ وَعِيفَةَ كُلُّهَا تَأْتِي مِنْ شَبَا. تَحْمِلُ ذَهَبًا وَلُبَانًا، وَتُبَشِّرُ بِتَسَابِيحِ الرَّبِّ. كُلُّ غَنَمِ قِيدَارَ تَجْتَمِعُ إِلَيْكِ. كِبَاشُ نَبَايُوتَ تَخْدِمُكِ. تَصْعَدُ مَقْبُولَةً عَلَى مَذْبَحِي، وَأُزَيِّنُ بَيْتَ جَمَالِي».[41]

ذلك هو المقطع الّذي أعاد كتابته الرّازي. فما الّذي جعله يؤكّد مقتنعًا مطمئنًّا أنّ الكاهن أو الحبر الإسرائيليّ المجهول واضع السّفر، يريد مكّة في نصّه؟ ومن أيّ لفظ أو جملة استخرج كلمات أمّ القرى وأهل سبأ وفاران، وليس في النصّ التوراتي فاران ولا سبأ ولا حجّ؟ وكيف أقرّ ذلك واقتنع به على الرغم ممّا ورد في الإصحاح نفسه بعد أسطر: «وَبَنُو الَّذِينَ قَهَرُوكِ يَسِيرُونَ إِلَيْكِ خَاضِعِينَ، وَكُلُّ الَّذِينَ أَهَانُوكِ يَسْجُدُونَ لَدَى بَاطِنِ قَدَمَيْكِ وَيَدْعُونَكِ: مَدِينَةَ الرَّبِّ، صِهْيَوْنَ قُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ».

فالرّاوي الإسرائيليّ صهيونيّ يتباكى على مجد سلفه الصّالح. ولو تمعّن الرّازي في نهاية هذا الإصحاح السّتّين لأدرك ما يقوله ذلك الإسرائيليّ وما ينتظر البشريّة من «صِهْيَوْنَ قُدُّوسِ إِسْرَائِيلَ»: «لاَ تَغِيبُ بَعْدُ شَمْسُكِ، وَقَمَرُكِ لاَ يَنْقُصُ، لأَنَّ الرَّبَّ يَكُونُ لَكِ نُورًا أَبَدِيًّا، وَتُكْمَلُ أَيَّامُ نَوْحِكِ. وَشَعْبُكِ كُلُّهُمْ أَبْرَارٌ. إِلَى الأَبَدِ يَرِثُونَ الأَرْضَ، غُصْنَ غَرْسِي عَمَلَ يَدَيَّ لأَتَمَجَّدَ. اَلصَّغِيرُ يَصِيرُ أَلْفًا وَالْحَقِيرُ أُمَّةً قَوِيَّةً. أَنَا الرَّبُّ فِي وَقْتِهِ أُسْرِعُ بِهِ»».

كلّ ما ورد في تلك المقاطع التوراتيّة إنّما يتعلّق بانتظار «المسيح القدّوس غصن داود» ليشيّد «إسرائيل مملكة أبديّة لا تتغيّر ولا تزول وتزيل جميع الممالك» الموجودة على وجه الأرض «وسلطانها يبطل جميع السلاطين» أي لا قانون على الأرض سوى شريعة الأحبار ولا قانون سوى «قانون إسرائيل» «وتقوم هي إلى الدّهر الدّاهر» وحدها إذ صارت الأرض كلّها «جنّة الربّ»!

تلك هي المراجع الإسرائيليّة اليهوديّة التي وجد فيها الرّازي «البشارة بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم»، بذلك المنهج وبذلك الأسلوب، وهو ما يجعل المسلم يتساءل: هل أنّ عالمًا مجتهدًا متكلّمًا يصل به الأمر في تفسير القرآن الكريم إلى ما وصل إليه الرّازي؟ لقد طوّع القرآن الكريم لما ورد في الكتب المتقدّمة ولروايات المحدّثين، لأنّه آمن أنّ تلك الكتب بشّرت بأحمد وإن لم تبشّر به. وإذا سألت: لمَ نقل علماؤنا أساطير تلك الكتب وأكاذيب الكهّان والأحبار واعتمدوها في تفسير القرآن والحديث وفي التّاريخ وفي الجغرافيا وفي غير ذلك؟ قيل لك: إنّ علماءنا اكتفوا بالنّقل وذكر السّند والعهدة على المصدر في الصّدق والكذب، وتركوا للقارئ الاختيار أن يصدّق ذلك أو يكذّبه. وهذا تبرير سفسطائيّ، لأنّ ذلك النّقل كان الباب الواسع لنشر ما

41 - إشعياء، 60

جاء الإسلام ليصحّحه، ويبني على أنقاضه فكرًا إسلاميًّا نقديًّا مستنيرًا. ولم يكتف بعض العلماء بالنقل بل صدّقوا الأساطير والخرافات وتبنّوها، وعلى أساسها فسّروا القرآن. وقد تواصل ذلك النقل وتوارثه أهل الحديث عبر القرون فصار ما يقرؤه المسلم في تفسير القرطبيّ أو الرّازي أو البغوي حقيقةً لا تناقش، فتعلن تلك الخرافات والشعوذة من أعلى المنابر، وعلى الهواء يردّدها شيوخ. وعندما يستنبط بعض العلماء معنى «البشارة بمحمّد صلّى الله عليه وسلّم» من مثل تلك النّصوص التوراتيّة ويصل بهم الأمر إلى الوضع كما فعل ابن ربّن الطبريّ، فإنّ ذلك هو الباب الأوسع للتحريف الذي حرص القرآن كلّ الحرص على اجتثاثه من أذهان المسلمين ليتحرّر العقل المسلم من الأغلال. وهذا المنحى الثّقافي في التّفسير صدّ المسلمين عن ثقافة حقيقيّة متحرّرة، ورسّخت ثقافة التلفيق والخمول والانتظار في أجيال المسلمين المتلاحقة إلى اليوم، أكثر ممّا هي عند اليهود والمسيحيّين.

نعذر علماءنا من السّلف في أمر: لعلّهم لم يتبيّنوا ما الصهيونيّة وما المسيحانية الصهيونيّة في العهد القديم. ولكن نلومهم على تجاوز واقعهم وإغفائهم في حلم انتظاريّ مكبّل للعقل. عاش الرازي النصف الثاني من القرن السادس الهجري (544-606هـ)، فهو مطّلع من قريب على الأوضاع السياسيّة وعلى حالة التدهور التي وصلت إليها الدّول الإسلاميّة شرقًا وغربًا وعلى بؤس المسلمين وفقرهم وعلى الأوبئة المتواصل انتشارها وعلى الجهل السائد وعلى الظلم المسيطر عليهم وعلى موت الخلافة العباسيّة في بغداد والأمويّة في الأندلس. في ذلك الزّمن لم يكن للمسلمين مملكة وإنّما ممالك وإمارات ومدن ودول يقاتل بعضها بعضًا، ويتحالفون من أجل السلطة مع المسيحيّين وغيرهم. ولكنّ الرازي أغفى بدوره يحلم كما حلم واضع سفر دانيال. ولا ننسى أنّ الحروب الصليبيّة قد بدأت سنة تسعين وأربعمائة (490هـ) وانطلقت الثانية عام (540هـ) أي في عصر الرازي. فتلك الجهود في إثبات «بشارات بمقدم محمّد صلّى الله عليه وسلّم في الكتب المتقدّمة» ليست سوى ردّ على اليهود والنّصارى، لما كانوا يشيعونه من صور وأقوال مشينة للرسول صلّى الله عليه وسلّم كما يحدث اليوم. ذلك هو سلاح الأعزل وكلام من يرجم بالغيب ويجادل بغير حقّ ولا كتاب منير. ليس ابن ربّن والرازي وابن القيّم إلاّ حلقة متواصلة لذلك المنهج في التّنقيب عن البشارة. والمؤسف أنّ كثيرًا من الكتّاب في العصر الحديث تبنّوا ذلك المنهج ورسّخوا في كتبهم تلك العقليّة التبريريّة التي نريد اليوم تحليلها من أجل تجاوزها وبناء عقلية باحثة وناقدة تقوم مقامها وتحلّ محلّها.

قائمة المصادر والمراجع:

أ) عربيّة:

1- ابن الأثير (ت: 606هـ) جامع الأصول في أحاديث الرسول، تحقيق: عبد القادر الأرنـاؤوط، الطبعة الأولى، مكتبة الحلواني، القاهرة، 1392هـ/ 1972م.

2- صالح بن الحسين الجعفري (581-688هـ) تخجيل من حرّف التّوراة والإنجيل، تحقيق: محمود عبد الرحمن قدح. مكتبة العبيكان، م. ع. س. الطبعة الأولى، الرّياض، 1419هـ/1998م.

3- ابن قيم الجوزيّة (691-751هـ) هداية الحيارى في أجوبة اليهود والنّصارى، تحقيق: محمّد أحمد الحاج، دار القلم، الدّار الشامية، السّعودية، الطبعة الأولى، جدّة، 1416هـ/1996م.

4- ياقوت الحموي (ت: 626هـ) معجم البلدان، دار صادر، الطبعة الثانية، بيروت، 1995م.

5- شمس الدّين الذّهبي (ت: 748هـ) سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرّسالة، الطبعة الثالثة، بيروت، 1405هـ/1985م.

6- فخر الدّين الرّازي (ت: 606هـ) التّفسير الكبير أو مفاتيح الغيب، دار إحياء التّراث العربي، الطّبعة: الثالثة، بيروت، 1420هـ.

7- مرتضى الزّبيدي، تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق: إبراهيم التّرزي، مطبعة حكومة الكويت، 1392ه/1973م.

8- مصطفى زرهار، مقاربات في دراسة النصّ التّوراتي، دار صفحات للدّراسات والنّشر، الإصدار الأوّل، دمشق، 2012م.

9- عبد المجيد الشّرفي، الفكر الإسلامي في الردّ على النّصارى، الدّار التّونسية للنّشر، 1986م.

10- إسرائيل فنكلشتاين، التّوراة اليهوديّة مكشوفة على حقيقتها، ترجمة: سعد رستم، دار صفحات للدّراسات والنّشر، الإصدار الرّابع، دمشق، 2011م.

11- عبد الوهّاب المسيري، موسوعة اليهود واليهوديّة، دار الشّروق، القاهرة، 2006م.

12- ابن منظور(ت: 711هـ) لسان العرب، دار صادر، الطبعة الثّالثة، بيروت، 1414هـ.

ب) أجنبيّة:

- L. Pirot, Supplément au dictionnaire de la Bible, vol.5, Paris, 1957.
- Henri Cazelles, À la recherche de Moïse, Cerf, Paris, 1979.
- Encyclopædia Universalis. Paris, 2010.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

الرباط – أكدال. المملكة المغربية

ص ب : 10569

الهاتف : 54 99 77 537 212+

الفاكس : 27 88 77 537 212+

info@mominoun.com

www.mominoun.com

All rights reserved © 2016

جميع الحقوق محفوظة © 2016